

أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

مايو ٢٠٠٦ - العدد ٢٤٩

محمد الماغوط: الكمان والعاصفة



■ إعاقة المجتمع المدني

مشور
التقد معركة
سياسية

الشائخ
سكة المشق
الجميل

■ ثورات المستضعفين في الإسلام



مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ

أ. علاء الدين شولس

www.lisanarb.com

أدب ونقد

مجلة الثقافة الوطنية الديمقراطية

شهرية يصدرها حزب التجمع الوطني التقدمي الوحدوي

تأسست عام ١٩٨٤ / السنة الثالثة والعشرون

العدد ٢٤٩ مايو ٢٠٠٦



رئيس مجلس الإدارة : د. رفعت السعيد

رئيس التحرير : فريدة النقاش

مدير التحرير : حلمي سالم

سكرتير التحرير : عيد عبد الطيم

مجلس التحرير : إبراهيم أصلان /

أحمد الشريف / د. صلاح السروي /

جرجس شكري / طلعت الشايب /

د. د. علي مبروك / علي عوض الله / غادة نبيل /

كمال رفزي / مصطفى عبادة / ماجد يوسف

المستشارون

د. الطاهر مكي / د. أمينة رشيد
صلاح عيسى / د. عبد العظيم أنيس

شارك في هيئة المستشارين ومجلس التحرير الراحلون
د. لطيفة الزيات / د. عبد المحسن طه بدر
محمد روميث / ملك عبد العزيز

تصميم الغلاف أعمال الصف والتوضيب
أحمد السجيني سحر عبد الحميد
الإخراج الفني
عزة عز الدين
لوحة الغلاف ورسوم العدد للفنان: ممدوح سليمان

الاشتراكات لمدة عام

باسم الأهالي / مجلة [أدب ونقد]: داخل مصر ٥٠ جنيها
البلاد العربية ٥٠ دولارا / أوروبا وأمريكا ٧٥ دولارا
شركة الأمل للطباعة والنشر

الأعمال الواردة إلى المجلة لا ترصد لأصحابها سواء نشرت أو لم تنشر

يمكن إرسال الأعمال على العنوان البريدي أو البريد الإلكتروني:

adabwanaqd@yahoo.com

موقع [أدب ونقد] على الانترنت: adabwanaqd.4t.com

ترجو المجلة من كتابها ألا يزيد عدد صفحات المادة المرسلة عن ثمانى

صفحات أو ثلاثة آلاف كلمة

المراسلات: مجلة [أدب ونقد] ١ شارع كريم الدولة / ميدان طلعت حرب / الأهالي

القاهرة / هاتف ٥٧٩١٦٢٨/٢٩ فاكس ٥٧٨٤٨٦٧

المحتويات

- * أول الكتابة / المحررة ٥
- * قراءة في تحولات الشخصية المصرية / دراسة / وليد علاء الدين ٩
- إشكاليات المجتمع المدني وسبل الحل / دراسة / حافظ أبو سعدة ٢٠
- المهمشون في التاريخ الإسلامي / كتاب / أحمد صبرى السيد ٣١
- محمد مندور والقضية الوطنية / رؤية / د. إيمان السعيد جلال ٤١
- محمود الشاذلى وتنويعات علي لحنى الصمود والولادة/نقد/فريدة النقاش ٥٢
- * الديوان الصغير :**
- الكمان والعاصفة - مختارات من شعر محمد الماغوط
- إعداد وتقديم : حلمي سالم ٦٥
- الإنتاج السينمائى المصرى الأوروبى المشترك / سينما / أمل الجمل ... ٨٦
- الطيور المهاجرة وقصص أخرى / كتاب / إيمان عبد المؤمن ٩٢
- آليات التشكيل فى «صمت الرمل» / نقد / خالد البلتاجى ١٠١
- عصفير وزهور / ترجمة / شعر عسارة كيرتشى /
- ترجمة عبد الوهاب الشيخ ١٠٩
- وجه الغزالة ، ماس جدائلها / شعر / عبد الناصر صالح ١١٢
- بكل وضوح / شعر / محمود خير الله ١١٨
- خداع / شعر / صلاح جاد ١٢٠
- يوميات حذاء / شعر / سامح محجوب ١٢٣
- المرايا / شعر / خالد حريب ١٢٦
- امرأة واحدة / شعر / سامى الغباشى ١٢٨
- الحصان / شعر / ناصر دويدار ١٢٩
- الجواد / شعر / محمد حسن على ١٣٣
- مخلوقات صغيرة / قصة / سعيد عبد الموجود ١٣٥
- الخليفة / قصة / أحمد محمد عبده ١٣٨
- عن ملفات الأدب فى الأقاليم / سمير الأمير ١٤١
- * إشارات / محمد الماغوط / رجاء النقاش ١٤٤

الوردة فى الحديقة

الحديقة ممتلئة بالورد .. بيضاء وصفراء، حمراء وزرقاء ووردية، برتقالية بنفسجية وقرمزية، هكذا تشكلت رغم أنها سقيت كلها بماء واحد، وأنزعت جميعا فى تربة واحدة طمياها واحد، سطعت عليها شمس الله الواحدة وتنفست هواء.

للوردة سرها إذن.. لعله يكمن فى الاختلاف والفرادة ويخاصم من البداية كل سعى للتنميط حتى لو كانت الطبيعة نفسها تتطلع إليه.. هكذا هو كل كائن حى، إنه فريد فى ذاته حتى لو انسحقت فرادته تلك بقوة القاهرة ما فإنه يظل يفصح عما يميزه ولو بطرق مراوغة. حتى النمل حين راقب العلماء سلوكه تبينوا أيضا تنوعه الهائل واختلاف حركة كل نملة عن الأخرى رغم التشابهات الكثيرة.. والانضباط الصارم وتوزيع الأدوار.

ما بالنأ إذن بالإنسان الذى قال عنه «شكسبير»: أى تحفة فريدة هو... وكان وهو يكتب ذلك البيت الأصيل من الشعر يتحدث عن مطلق الإنسان لا عن ملك أو إمبراطور.. كان يستدعى الصيادين والرعاة.. الحدادين والنجارين والمهرجين وحتى العاهرات.

ولكن كاتبها كبيرا مثل «يحيى حقى» رأى فى روايته «قنديل أم هاشم» الجمهور ككتلة واحدة صماء تكرارية ساكنة.

ولا غرابة إذن أن يقارن بينها وبين النمل والرمل وهى شاردة من بؤسها وتخلفها، وقانعة بأن الظلم عقاب على أثام ارتكبتها، والجمهور شخصية جماعية جاهلة مفعول بها «كتلة سقطت من شجرة الحياة فتعفنت فى

كنفها» ويمكن للمرء أن يتساءل هل هو الغضب من البؤس أم احتقار البائسين؟ لكن بوسعنا أن نجد فى هذه النظرة للبشر كجماعة آثار الرؤية المثالية الرومانسية التى تغلفها فلسفيا نزعة أنثروبولوجية ترد المجتمع كله إلى ميول الناس الطبيعية البيولوجية وتتفى عوامل تطوره الاجتماعية العميقة والدور الحاسم الذى تلعبه هذه العوامل فى نمو الإنسان وتشكله وبخاصة موقعه الطبيعي من محيطه.. وبيئته الثقافية والتغيرات البيئية أو العاصفة التى يعرفها هذا المحيط بكل مكوناته..

ومن مثل هذا السياق تبقى صفات الإنسان ثابتة ومن هنا ينبع التشابه والتكرار مادام العنصر البيولوجى حاكما هو نفسه، ويأتى المكتسب الاجتماعى فى مرتبة متأخرة.. ويبدو هذا الإنسان المجرّد كتلة من العواطف والمشاعر والانفعالات والأفكار والأوهام الثابتة الجوانبية التى تسم تكوينه الوجودى ومن شأن هذه الرؤية أن تبرر الظلم باعتباره فعلا خفيا غامضا نابعا من نزوع إنسانى فطرى دون جذور اجتماعية أو استغلال طبقي ينهب فيه البعض فائض عمل الأغلبية.

يقول يحيى حقى «ما هذا الظلم الذى تشكون منه؟ ما هذا العبء الذى يجثم على الصدور جميعها؟ ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع من الرضى والقناعة وما أسهل ما ينسون».

ولعل «يحيى حقى» برويته هذه لما يسميه الرضا بالظلم أن يكون واحدا من المنظرين لفكرة شائعة تقول بأن الخنوع هو خصلة مخلوقة مع الشعب المصرى وبالأمس سألنى صحفى أجنبي: إن كان الشعب المصرى حقا خوفا طبيعته؟ وهو ما سبق أن قال به «المقرزى حين نقل ما روى عن «عمر بن الخطاب» أنه سأل «كعب الأحبار» عن طبائع البلدان وأخلاق سكانها فقال:

إن الله تعالى لما خلق الأشياء جعل كل شىء لشىء فقال العقل أنا لاحق بالشام، فقالت الفتنة وأنا معك، وقال الشقاء أنا لاحق بالبادية فقالت الصحة وأنا معك. وقال الخصب أنا لاحق بمصر فقال الذل وأنا معك».

تشرنق «يحيى حقى» فى نظرتة الرومانسية المثالية للعالم باحثا عن انسجام مستحيل يتوافق فيه الظالمون والمظلومون حتى إنه قال عن المحتلين «إخوتنا» على اعتبار أن الغفران هو صنو هذا الانسجام المنشود فى عالم متنافر الأجزاء محتقن بالآلام

والإنقسام.

ولم تستطع نظرتة - رغم صدقها الشخصي - أن تنفذ إلى ما وراء الظاهر من خنوع «النمل» ومذلتة وتشابهات الرمل وتكراره كما وصف هو الشعب. ولم أعرأ أبدا من أعمال «يحيى حقى» عن كتابة تتعلق بانتفاضة فبراير ١٩٤٦ التي اندلعت بعد كتابة روايته تلك بسنوات قليلة وتحول «جيش النمل» إلى جيش تمرد وعصيان ضد المحتل والقصر وكبار الملاك، وتراجع الذل الذي حمله الخصب معه إلى مصر كما قال «كعب الأحبار» .. وتلونت مياه النيل حينها بدماء قتلى مذبحه كوبرى عباس وامتلأت السجون بالمعتقلين واندلع الغضب فى كل مكان.

ورغم العذوية والطيبة الصافية التى فاتها أن تلحظ فى الطبيعة تنوع الورد واختلافها ونساعة ألوانها وتباينها الذى يهزم التكرار فقد بدا عطف «يحيى حقى» على الجماهير منطويا على الإزدراء والشفقة التى تعيد إلى الأذهان تعالى الأتراك المعروف على الفلاحين المصريين، على اعتبار أن الأتراك كانوا حكاما والفلاحين محكومين. يقول الكاتب «حركة النمل تتعارض وتتحدى وتضرب فى كل اتجاه.

وحين وقفت الباخرة لدى عودة بطله «إسماعيل» إلى مصر بعد أن درس الطب فى أوروبا «أصبحت جثتها فريسة لجيش من النمل يهاجمها».. إنها الشفقة الممزوجة بالقرف.

ويقول «إسماعيل» لاحقا فى صيغة النداء المتعاطفة مخاطبا هذا الجيش البائس ، ناسيا أن ثمة أيضا فرادة من القدرة على الإيذاء:

«تعالوا جميعا إلى .. فيكم من أذاني، ومن كذب على ومن غشني، ولكن رغم هذا ما يزال فى قلبى وكان لقد ارتكمت وجهلكم وإنحطاطكم. فأنتم منى وأنا منكم ، أنا ابن هذا الحى. أنا ابن هذا الميدان لقد جار عليكم الزمان، وكلما جار واستبد كان إعزازى لكم أقوى وأشد».

فهل يمكن أن يمنح إنسان كل هذا الحب المشبوب إلى كتلة غائمة هى جيش النمل؟ أم أن ثمة أشياء وأشياء تميز كل منها عن بعضها البعض تجعل للمحبة عينين ترى بهما إنسانية كل فرد على حدة.

أما الوجه الآخر لهذه النظرة المتعالية الممزوجة بالشفقة والاحتقار فى أن فهو القول

بارستقراطية الطبيعة، وهى فلسفة يروج لها المستفيدون من انقسام المجتمعات ومنها المجتمع المصرى بين قلة فاحشة الثراء وأغلبية فقيرة، وبينهما طبقة وسطى مهددة فى كل لحظة بالانحدار وتكافح بأيديها وأسنانها لتبقى مستورة.

فمن المستفيد؟ طبعا هم أصحاب الثروات الهائلة الذين يرون أن الغنى يستحق غناه وأن الفقير يستحق فقره، وأن عدم المساواة بين البشر هو الوضع الطبيعي، فالطبيعة كما تقول هذه الفلسفة نخبوية لأنها تنتقى الأقوى والأجمل ومن ثم الأصلح فتتوجه على صعيد كل المخلوقات، والبشر هم أيضا مخلوقات الله تصطفى منهم الطبيعة الأفضل وهؤلاء المحظوظون المنتخبون من الطبيعة أو حتى من الله سبحانه هم عادة الأقلية بينما تظل الأكثرية الساحقة من الناس هى الجمهور هى «السفلة» على حد تعبير «شوينهور» أو جيش النمل الذى أشفق عليه «يحيى حقى» ونذره للتكرار والتشابه ولكنه بدوره اصطفى منه بطله.

تزدهر هذه الفلسفة فى أيامنا السوداء هذه وتتسلل إلى القلوب والعقول.. ولكن مروجيها ينسون شيئا جوهريا ألا وهو أن الإنسان قد تميز عن كل المخلوقات بالوعى .. ولذا فإن العقل النقدى يفند هذه الفلسفة وهو يفككها ويعيدها إلى جذورها الاجتماعية ويزرعها فى قلب المصالح التى خرجت هى تعبيرا عنها، ويحتمى العقل النقدى فى هذه العملية طويلة المدى بوعى متزايد للجماهير العاملة بحقوقها ومصالحها، وعى يبتكر الناس عبر فريدة كل إنسان فهم أشكالا متباينة للإفصاح عنه، وابتداع صور للكفاح رافضة أى منطق يقول إن الله قد وزع الأرزاق بهذه الطريقة حتى لو قال بذلك بعض الشيوخ ممن يستفيدون من الانقسام فهو سبحانه لا يرضى بأن تعيش ملايين فى هذه الفاقة فى ظل وفرة هائلة من الثروة، فهو الله الذى خلقنا جميعا من نفس واحدة.

تاريخيا كان التمييز والنزعة النخبوية كوجه آخر له هما الأب والأم الشرعيان للفاشية والنازية والعنصرية والصهيونية، إذ تتأسى كل هذه الفلسفات على فكرة تفوق جنس وانحطاط والاجناس الأخرى. وقد كان الإحياء المنظم لفلسفة «نيتشة» التى أقامت عليها النازية خيمتها الفكرية مقدمة لصعود «هتلر» على أساس التفوق العرقى للجنس الأري، وهى المنظومة التى نقلت عنها بهذه الطريقة أو تلك حركات عنصرية وقومية

متعصبة فى كثير من أنحاء العالم مفرداتها الإيديولوجية، وقد أخذت هذه الحركات تستعيد عافيتها مؤخرا بعد أن كانت الفاشية قد تلقت هزيمة ماحقة فى الحرب العالمية الثانية، وهى استعادة تتوابع مع تحول الرأسمالية العالمية مجددا إلى الاستعمار العسكري، ويدخلها إلى مرحلة العولة التى يصفها البعض بأنها مرحلة ما بعد الأمبريالية.. التى تنتعش فى ظلها العنصرية الصهيونية على أرض فلسطين وتبتلع الأرض وتقتلع الزرع وتسحق البشر وباسم وعد إلهى للشعب المختار، وهو الوعد المزعوم الذى تتستر به المصالح الاستعمارية التى تحميها إسرائيل.

وفى هذه الطاحونة نفسها تصب عمليات إحياء النزعات الدينية الرجعية فى كل الديانات سماوية وأرضية، وتفتح الباب واسعا فى البلدان المتعددة الديانات والأعراق للصراع الطائفى والعرقى، فضلا عن أنها تصلح ملاذا للجماهير البائسة الجائعة والتى تجد فيها هروبا من التعاسة الواقعية على أمل الحياة الأفضل فى الآخرة، أى أنها تنعش فى اليائسين رغبة عارمة فى الخلاص بالموت، بدلا من الخلاص بالحياة.. والخلاص بالحياة يعنى قبل أى شىء رعاية موهبة الحياة والدفاع عنها ضد كل موت، خاصة أن أيام الربيع التى نعيشها الآن تمنحنا فيضا من الألوان وردا وأشجاراً يدعونا كلها للتأمل فيما كتبته عن الورد فى أول هذه المقال، وعن معنى التنوع والفراة والعالم الذى نحن جميعا مدعوون لصنعه على أساس منها، فلسنا نسخا مكرورة وشائهة من بعضنا البعض، وليس بيننا من هو «طبيعيًا» وبيولوجيا أرقى وأفضل من الباقين فالفراة مخلوقة معنا تماما كما الورد، أما الرقى والتفوق فهو كدح وعمل من شروط عادلة.

إنه وأن الورد الذى يدعونى للتأمل من كل هذه المعانى والأفكار ولكننى لا أقول مع «سعاد حسنى» إن الجو بديع قفل لى على كل المواضيع .. فالورود تتفتح.

المحررة

زيف الصورة الذهنية: قراءة فى تحولات الشخصية المصرية

وليد علاء الدين

لعله من الواجب قبل الخوض فى استعراض مداخلتى التالية حول (الشخصية المصرية) أن أوضح أننى ما كنت لأهتم بهذا الأمر أو أفكر فيه لو لم أكن منتمياً كلية إلى (مصر): هذا الكيان الذى نصلح على تسميته بالوطن، والذى أحتار دائماً فى أمر ذلك الشعور الدافئ الذى يربطنى به، رغم أنه لا يحقق لى ولكثيرين غيرى الحد الأدنى من شروط المواطنة الكريمة.

ولا أجد لذلك من أسباب موضوعية سوى الوعى بأن الوطن ليس (أحوال الوطن)، وأنه ينبغى علينا قبل أن ننساق وراء مشاعرنا أن ندرك أن سبب انتمائنا إلى الأوطان مهما بدت قاسية، هو إدراكنا الخفى أن الوطن لا يتحمل تبعات ممارسات القلة التى تدير أحواله، مهما طال بقاء هذه القلة وزاد فسادها.

وأضيف على ذلك أننى لا أنكر على (الشخصية المصرية) تمتعها بالعديد من الصفات الحميدة، كما لا أنكر أبداً ما للمصرى من تراث عريق ومتنوع، ولا أنكر كذلك قدرته - أى المصرى - على تحمل ما قد تنوء بحمله الجبال من ظلم وقهر واضطهاد وفساد منذ أقدم العصور وحتى الآن.

لا أنكر كل ذلك من أمور كفيفة بأن تثير فى المصرى الكثير من الشعور

بالفخر والعزة لأنه مصرى (بهذا المعنى)، إلا أن ما ألقت النظر إليه هنا هو ذلك التحول الذى طرأ على نمط منتشر من أنماط الشخصية المصرية - وسيكون هذا النمط هو مقصود التحليل فيما سبلى من المقال - يتجلى فيه الفخر والاعتزاز بصورة مرضية بدا أن الشفاء منهما فى حاجة إلى وقفة وعى عام ونظرة موضوعية قبل فوات الأوان.

وسبب ذلك - فى رأبى - أن ما يمتلكه المصرى المعاصر من إحساس بالفخر والاعتزاز بمصريته ليس نابعاً عن فهم وإدراك لحقائق الأمور، بل هو نتيجة لعملية مستمرة مورست عليه منذ سنواته المبكرة، تم (حشوه) خلالها بأفكار منزوعة من سياقها - حتى لا نقول مغلوطة - هذه الأفكار وإن كانت حقائق، أو جزء كبير منها هو حقائق، فهى بنزعتها من سياقها العام كونت تصوراً مشوهاً وناقصاً ومفتقراً للحياة، جعلها أبراجاً عالية فارهة، إلا أنها عرضة دائماً للسقوط عند أول نفخة ربح، لأنها قائمة على سطح الأرض دونما أعمدة أو أساس.

فالشخص (المصرى) المعاصر ينشأ منذ نعومة أظفاره فى بيئة تتولى عملية تغذيته بأفكار حول تفوقه وتميزه، وتمنحه قشوراً باهتة حول مجده التليد وحضارته القديمة التى لم تر الدنيا حضارة مثلها، وتغلق الباب أمام تعرفه على الآخر بصورة سليمة، ليصبح لا أحد خارج مصر، لا حضارة ولا فن ولا سياسة ولا أدب ولا... ولا..... ليكبر المصرى وتكبر معه أفكاره المتوهمة حول ذاته وشخصيته، تلك الأوهام التى لا يمتلك القدرة على مقاربتها بشكل واع - لكى لا نقول علمى أو منهجى - وبالتالي لا يمكنه التواؤم معها أو تمثلها أفعالاً وخصالاً تدفعه نحو الأمام، ناهيك عن صدمة اكتشافه أن ثمة آخرين كثر خارج (مصره) ولهم قدرات تفوق أو تقل أو تساوى ما له من قدرات.

تراكم هذه التصورات فى ذهن المصرى من شأنه أن جعل منه من ناحية: شخصية مثيرة لنفور الآخر إلى حد ما، قادرة على تحريك مشاعر الكراهية فى نفسه بما تحمله من تصور فوقى متوهم حول ذاتها وتصور دونى متوهم حول الآخرين، ومن ناحية أخرى جعلها شخصية سهلة الانقياد وراء ما يستطبع أن يدغدغ تلك المشاعر فيها، إضافة إلى أنها أصبحت شخصية معرضة للإحباط عند أول محك عملى أو مقارنة واقعية تختبر مقومات العزة والفخر لديها.

هذا الإحباط هو التوصيف الأقرب للحالة التى تحدث عند مغادرة الشخصية المصرية لمحيطها الذى يحميها، ويشاركها أوهامها الذاتية المتضخمة: أى مصر نفسها، حيث تسمح شروط هذا المحيط بأن تظل هذه الشخصية هائمة فى فراغ تخيلاتها حول عظمة المصرى وقدراته الخارقة التى جتماً تفوق الآخرين فى كل شىء بداية من الجنس والفضولة الجنسية وانتهاء بالفهولة والقدرة على صنع المعجزات.

ولأن حديثي هنا سوف يقتصر على الشخصية المصرية فى تفاعلاتها خارج محيطها المصرى، وهو الأمر الذى تابعته بحرص طوال فترة إقامتى خارج مصر، فإننى اكتفى بالإشارة إلى أن تصورى النظرى يرى أن الفكرة نفسها تنطبق داخل المحيط المصرى، ولكن الفارق الجوهرى فى رأى أنها تتم فى إطار قاعدة (الأولوية بين أكفاء)، وهو مصطلح استخدمه الدكتور جمال حمدان فى إطار حديثه عن أمر آخر، إلا أننى وجدته يناسب تماماً ما أود قوله فى وصف الفارق بين شعور الشخصية داخل محيطها المصرى، وخارجه، لتأكيد وطأة ما تحدثه صدمة المواجهة/ الاحتكاك بما هو خارج هذا المحيط أو بمن هم خارجه (الأخر غير المصرى).

من الجدير بالذكر أن نتائج هذه المواجهة لا تكون سلبية على طول الخط، بل إنها أحياناً تخلق قوة دافعة داخل الشخص، فيعيد النظر فى أمر ذاته وقيمتها وفقاً لمعايير العصر، ويستدعى من تركيبته جواهرها فيثبت جدارة وتفوقاً ونجاحاً، ولكن يحدث هذا فقط لدى هؤلاء الذين يمتلكون القدر من الوعى اللازم للاحتفاظ بتوازنهم واستدراك الأمر وتغيير الاتجاه، عند التعرض للصدمة التى نغنيها: صدمة اكتشاف زيف الفكرة عند المقارنة أو الاحتكاك أو الآخر، وهؤلاء للأسف - مع وطأة التعبئة الفارغة - يمثلون القلة، ومن هذه القلة نرى هؤلاء المصريين الذين يتفوقون فى (الخارج) إلى حد إظهار العبقرية.

ولكن لفساد النموذج العام، فإن قدرة هذه القلة على تحويل الإحباط إلى نجاح يتم نسبة أو الصاقه بالوهم العام حول عبقرية الشخصية المصرية على طول الخط دون قراءة متأنية أو منهجية لأسباب تفوق هؤلاء التى لو تمت قراءتها بشكل منهجى موضوعى لكنت مؤشرات فعلية على الخلل المفرغ الذى تمر به تلك الشخصية، ولأمكن لنا أن نحلل أسباب هذا النجاح لنحولها إلى نموذج يمكن إتباعه على المدى الطويل لنجعل من الاستثناء قاعدة.

باستثناء هذه القلة فإن المواجهة التى أشرنا إليها تنتج حالات كثيرة يمكن أن نقتبص منها ثلاث شخصيات باعتبارها نماذج بارزة، بين هذه النماذج يمكن تصنيف أطراف كثيرة ومتنوعة يمتاز كل طيف عن الآخر بأصور جوهرية، إلا أن جلهم وإن بدوا أقل تشابهاً، ربما يقعون فى واحد من هذه التصنيفات الثلاثة أو يدورون فى فلكها، باعتبار أن تصنيف القلة الأول هو الناجى الذى علينا أن نسعى لزيادة رقعة ومساحته بشتى الطرق الممكنة.

وفيما يلى محاولة لتوصيف هذه النماذج، ربما لن نتجح فى الفرار من أسر المبالغة التى يستدعيها عادة الحديث عن أنماط من البشر تعيش بيننا، كما أننى فى البحث الأصيل أتبعها برصد لعدد من الأمثلة العملية على كل منها لتقريب الصورة من ناحية،

ولإزالة أية شبهة للتجننى قد تكون أوقعتنى فيها محاولة صياغة الأفكار بالكلمات من ناحية أخرى، وهو أمر لن يتسع المجال له هنا.

شخصية المحتال:

أوم نزاوية نظر أخرى شخصية الـ (Survivor) الذى تنحصر مهمته فى أن يبقى حياً بعد انقضاء حادثة ما، وهو تحول يصيب الشخص فور اكتشافه أنه لا يمتلك من القدرات العملية أو المقومات الحقيقية ما يتفق والصورة الذهنية التى يمتلكها حول نفسه، ولكنه لا يستطيع نقل هذه المعلومة لتصبح معرفة ترقى إلى مستوى الوعى ليعمل من خلالها على تجاوز أزمته ، فيقوم بتدريب نفسه والتعلم والتقاط المهارات الكفيلة بانخراطه على الأقل فى الحياة بغض النظر عن أن يصبح مميزاً أو غير ذلك.

تجد ذلك الشخص يركز كل مهارته وقدراته فى المعارضة الفارغة أو الإصرار المبالغ فيه على صحة ما يقوم به من أعمال، أو رفض الآخر بحماقة واعتباره أقل منزلة منه، وهو يوجه كل معرفته فى اتجاه التحايل على ما يعترضه من أمور، فقط لتجاوزها وليس لاحترائها، والتجاوز هذا فى المعنى الذى أقصده هو عبور الأمر، بينما يشمل الاحتواء عبور الأمر وتحويله إلى معرفة مكتسبة ضمن تركيبة الشخصية.

ومعنى ذلك أيضاً أن هذا الشخص لا يضيف إلى شخصيته مهارة جديدة بتحاياله على الخروج من المأزق ، فهو يخرج من المأزق بالحيلة سطحياً كما مر به، دون أن يضيف إلى الخبرات الإيجابية لديه جديداً، بل يزيد من رصيده قدرته على التحايل، فتأكد لديه الصورة الذهنية الزائفة عن كونه مميزاً وقادراً على تجاوز المشكلات بالفهولة.

شخصية (الكامن)

وهو الشخص الذى يفضل عدم المنافسة داخل الميدان، ولكنه لا ينسحب منه، ويبقى منطوياً على ذاته.

وهو لم ينسحب لأنه لم يعترف بفساد الصورة الذهنية التى عاش عليها، ولم يعترف بأسباب فشله الحقيقية، وإنما هو انطواء يتضمن قدراً من الغضب على الدنيا التى لا تعترف بالعبقرية ولا تعطى لكل ذى حق حقه، وتكيل بمكاييل غير عادلة، وغير ذلك من تصورات.

هذه الشخصية المنطوية لا تنسحب كما أسلفنا من الميدان، وتظل كامنة فى أى مكان يتوفر لها، بمهارات معطلة ذاتياً، (أى أنه لا يخلو من مهارات إلا أنها تعطلت فى إطار نمط الكمون الذى اختاره لنفسه)، ونفسية معتلة تلعن الزمن والظروف، وتهزأ من كل

آخر قادر وفاعل، ولا تعترف بمهارة هذا الآخر بل تعلقها بجور الزمن الذي لا يفرق بين الرجال.

هذا النموذج : الكامن، يتضمن أطرافاً عدة مثله مثل بقية النماذج، فتارة تراه شخصاً متعالياً على الآخر تماماً، لا يكاد يراه، إذا كانت الظروف تسمح له بذلك، وهو بهذا يعوض ما يشعر به من صدمة المقارنة، وتارة تراه شخصاً متملقاً ومداهناً للآخر بشكل مبالغ فيه، يضمّر في نفسه رفضاً شديداً لهذا الآخر الذي تضطره الظروف إلى مداهنته وفق مبدأ شهير: (إن كان لك عند الكلب شيء قل له يا سيدى)، كما يمكن أن تجده شخصاً لا يرغب في أن يشعر بوجوده أحد، يمضى ساعاته وأيامه في ممارسة رد الفعل وتنسيقه وليس الفعل والمبادرة.... وهكذا.

شخصية (المنسحب):

وهو الشخص الذي تصعبه نتيجة المقارنة بين الصورة الذهنية التي عاش عليها طوال حياته، وبين القدرات الواقعية لهذه الصورة على محك الفعل. لسبب أو لآخر تختار هذه الشخصية أن تنسحب فوراً من خوض المعركة، ربما لأنه تمتلك (نصف وعى)، يسمح لها بتعرية (نصف الحقيقة)، ولا يسمح لها بالقدرة على تحويل هذه المعرفة إلى قوة دافعة، فتزداد وطأة الصدمة عليها، لتصبح صدمتين: صدمة اكتشاف الشخص زيف الصورة الذهنية، وصدمة تصويره لما يتطلبه تغييرها من جهد لا يستطيع بذله، فتكون النتيجة الانسحاب الكامل، فلا هو تمكن من أن يصبح (المحتال) كالنموذج الأول لأن القدر الذي يملكه من الوعى يحول بينه وبين لعب هذا الدور باحتراف، ولا هو أمكنه الكمون كالشخصية الثانية للسبب نفسه (نصف الوعى) فيكون الخيار الأقرب هو الانسحاب.

وعادة ما تكون الصورة المثالية لهذا الانسحاب العودة إلى المحيط الذي يشاركه خيالاته عن العبقرية ولكن للأسف فإن هذا النموذج يظل ما بقى له من حياة مشروخاً، لا هو حلق في أفق مغادرة الوهم، ولا هو تمكن من العودة إلى حالة الاستقرار في محيطه الأول.

ويمكن ملاحظة هذا الأمر بكثافة على فئات من العائدين من العمل في الغرب أو في الخليج لعدم قدرتهم على النجاح وفقاً لمثال القلة (الناجية) أو الانخراط وفقاً لمبادئ الشخصية الأولى (المحتال) أو الكمون كما يحدث مع الشخصية الثانية (الكامن). ويتبدى ذلك الانسحاب في أنماط السلوك التي يتبعها هؤلاء في الحياة بعد عودتهم إلى

محيطهم الأصلي ، وعادة ما تصيبهم الأمراض العضوية الناتجة عن حمل نفسى رهيب، أو يقضون بعد سنوات قليلة من العودة إلى محيطهم، أو ينخرطون فى أمر المتعصبين، سواء كان هذا التعصب دينياً أو فكرياً لأنهم يرون فى العودة إلى الأصول والماضى وإلغاء الآخر ومصادرته ومحاولة تنميته بنمطهم أو إقصائه من منظومة التفكير ما يريحهم من عذاب هذا الشرخ الذى أصابهم إلى غير التثام، كما أن هذا الانتماء إلى الماضى قد يظهر فى أشكال من النكوص النفسى والدخول فى حالات نفسية مرضية.



قبل الانتقال إلى محاولة تقصى إرهابات هذه التحولات فى التاريخ، أجد واجباً التأكيد على أن توصيف النماذج الثلاثة السابقة لا يعنى أنها النماذج الوحيدة أو أنها تتسع لتشمل جميع المصريين، إلا أنها كما رأيتها تستوعب عدداً كبيراً منهم، وإن لم يعن ذلك انطباق جميع التفاصيل النظرية لكل واحدة على كل شخصية مصرية، فإن هناك إطيافاً كثيرة ومتعددة كما ذكرت سابقاً تتداخل مع هذه النماذج وتتقاطع.

كما أن تتبع هذه الصفات لا ينفى أو يتعارض بحال مع أن المصرى بالفعل مميز، وأن من شأن هذه الأمور أن تعطل ميزاته وقدراته ومهاراته الخاصة، تلك المهارات والقدرات والخبرات التى لا جدال فى كونه قد اكتسبها بفعل التجارب والمحن والظروف، التى مر بها - مثله فى ذلك مثل باقى الشعوب - إلا أن التجارب فى حالته امتدت نسبياً فى الزمن كما كانت قاسية وغزيرة ومتنوعة، ولفرط قسوتها تلك فإنها كانت كفيلة بتحويله إلى شخصية منكسرة وفاقدة للثقة، وربما أن رغبته فى مقاومة هذا الانكسار ساهمت بشكل أو بآخر مع صحبة أخرى من العوامل فى تحوله إلى تلك الأنماط محتمياً من قسوة الانكسار وصدمة بقشرة زائفة ساهم فى تكريسها مناخ عام وممارسات تواتت على مر التاريخ.

كما ينبغى التأكيد على أن هذه الملامح لا يمكن أن تكون مقتصرة على المصريين بعينهم دون شعوب الأرض، وإلا أنزلقنا فى فخ الوهم من زاوية أخرى، فهى لابد موجودة بشكل أو بآخر ولأسباب ومواضع مختلفة أو متشابهة لدى كثير من شعوب العالم، وربما أن عارض الفخر الزائف هذا عامل مشترك بين جميع الشعوب العربية تحديداً، وهو ما يلمسه المغترب فى بلد يضم جميع الجنسيات العربية، فالعراقى مثلاً يعتقد أنه صاحب أقدم حضارة وأن اكتشاف العراقى القديم للعجلة يعنى أنهم أصحاب أول حركة فى العالم، وينظر إلى الجنسيات الأخرى من العرب نظرة دونية أو حاقدة أو ناقدة، واليمنى يرى أنه أصل اللغة وبالتالي الحضارة، ولا يقل فى ذلك اللبناني والسورى والمغربى، ولكل أسبابه وأوهامه ، بينما الشخصية الخليجية تمارس الآن نوعاً من التعالى الشكلى

على الجميع، ولكن ليس داخلياً في إطار اهتمامي - على الأقل الآن - تقصى هذه الملامح في شخصية أخرى غير المصرية.

رؤية تاريخية

لعله من الصعوبة بمكان أن تحدد تاريخ بداية الممارسات التي انتهت بالشخصية المصرية إلى هذا الوضع، أو هددت بتفشيها، إلا أن البعض يعيد نشوء فكرة (القومية المصرية) إلى فترة وجود الحملة الفرنسية، والمقاومة الشعبية لها، وما حدث كذلك من مقاومة الشعب للمماليك وللوالى العثماني إلى أن وقع الاختيار على محمد علي.

وربما كان الزافعي في كتابه (تاريخ الحركة القومية) هو أول من ربط بين مقاومة المصريين للحملة الفرنسية وما أعقبها حتى اختيار محمد علي، وبين ولادة الشعور بالقومية المصرية، فقد أشار إلى أن «نابليون قد استثارت الروح القومية المصرية، ولم يسبق لفاتح قبل ذلك العصر أن يشيد بمكانة مصر وعظمتها ويوجه خطابه إلى المصريين وبعدهم بأن يكونوا أصحاب الحل والعقد في البلاد» (١).

بينما منح لويس عوض فكرة القومية المصرية ميلاداً آخر (٢)، حين ربطها بالذاكرة التي رفعها (المعلم يعقوب المصري) إلى الإنجليز، والتي تضمنت مطالبة بحكومة مصرية مستقلة، معتبراً بذلك أن (يعقوب) - الذي كان يعمل لصالح الفرنسيين وقتها فمَنحوه لقب جنرال، والذي تدور حول شخصية شكوك كثيرة - هو صاحب فكرة القومية المصرية.

وفي كلتا الحالتين فإن ما اعتبره البعض بدء إحساس المصريين بذاتهم، هذا الإحساس الذي سوف ينمو بعد ذلك ليتخذ أحياناً أشكالاً غير صحية، لم يكن نابعاً من إيمان المصريين بذلك، أو نتاجاً حتمياً لممارسة المصريين العملية للحياة ورؤيتهم لجوانبها السياسية والاجتماعية والاقتصادية فالواضح أن ميلاد هذه الحركة - إذا جاز استعمال هذا المصطلح لوصفها - جاء باعتبارها بديلاً رأى الفرنسيون أنه الأفضل لمصر بعد رحيلهم عنها لكي لا تستفيد من رحيلهم قوة منافسة لهم، فإذا كان الرحيل ضرورة، فلتكن إذن (مصر للمصريين).

كما أن الإشادة بعظمة مصر وحضارتها التي استخدمها نابليون في خطاباته للشعب المصرى يمكن أن نعتبرها من قبيل مغازلة هذا الشعب لاستقطابه وتحبيده وكسر شوكة المقاومة المتوقعة منه.

وقد أشار الدكتور أحمد على المجدوب في كتابه (الوهم والحقيقة في الفكر المصرى

الحديث) إلى أن إعجاب الراقعي بنابليون يعد من قبيل التعصب لفكرة القومية المصرية «إلى الحد الذي يجعل الراقعي يغفر لهذا المحتل كل جرائمه وأثامه في حق مصر وأبنائها مجرد كلمات لا قيمة لها أثبتت الأحداث التي سبقتها والتي لحقتها كذبها».

أما ما تضمنته مذكرة (الجنرال يعقوب) الذي نسب إليه لويس عوض فكرة القومية المصرية، فإنه يقدم دليلاً قاطعاً على أن هذه الدعوة ليست نتيجة طبيعية لممارسة عملية واعية، يقول في تلك المذكرة: «إن إنشاء هذه الحكومة لن يكون قط نتيجة لثورة استحدثها نور العقل أو اخمار المبادئ الفلسفية المتصارعة، ولكن تغييراً تجريه قوة قاهرة على حياة قوم وأدعين جهلاء يكادون لا يعرفون في الوقت الحاضر إلا عاطفتين تحركان الأخلاق: المصلحة، والخوف» (٣) ويقول: «إن طول استعباد المصريين تحت يد الترك والماليك قد حرم مصر من النور الكافي لتكوين رأى عام بصير يمكن أن يخرج منه عمل سياسى لتغيير نظام الحكم».

ويغض النظر عما تم إطلاقه على (الجنرال يعقوب) من صفات الخيانة والعمالة وغيرها (انظر كتاب الدكتور أحمد على المجدوب: الوهم والحقيقة في الفكر المصرى الحديث)، لأنها في حاجة إلى نظر وفحص على مستويات أخرى فإننا نجد في مذكرته التي استند إليها لويس عوض في تنصيبه أباً لفكرة القومية المصرية إشارات واضحة إلى ما أوردناه سابقاً من صفات الشخصية المصرية، فالمذكرة عبارة عن اجتهاد (فهلوى) يهدف إلى إقناع الطرف الآخر بما يرغب فيه، فلأنه يخاطب الإنجليز فهو يرى أن «أيه حكومة تحكم مصر تفضل حكومة الترك» ويقنع الإنجليز بأنه «أنضم إلى الفرنسيين بدافع من رغبته الوطنية في تخفيف آلام مواطنيه» وأن «الفرنسيين خدعهم»، ولهذا «فالمصريون الآن يحتقرون الفرنسيين احتقارهم للترك فيما مضى»، مؤكداً أن «الفرنسيين جعلوه يعتقد أن بلادهم أقوى بلاد أوروبا» وأنه «لم يكن يعرف شيئاً عما لإنجلترا من قوة بحرية عظيمة»، ومع ذلك فقد كان يعلم «أنه بغير تأييد بريطانيا العظمى فإن رغبته في أن يرى وطنه يتمتع بالاستقلال مقضى عليها بالفشل». ثم يؤكد يعقوب أنه لا داعى للخوف من دفاع المصريين عن استقلالهم، لأنهم لن يتمكنوا من توجيه هذا الدفاع ضد الأوربيين إلا بعد وقت طويل، عندما تصبح القوة القومية منظمة وتكون قد اكتسبت الاحترام، إلا أن هذا الدفاع (القومى) سيكون ضد الترك والماليك، وفى هذه الحالة «نعتقد أن الدول الأوربية يمكنها أن ترد عنهم كل عدوان يقع على مصر، وبالإضافة إلى هذا ففي إمكان المصريين أن يستخدموا على حسابهم قوة أجنبية مساعدة مؤقتة يتراوح عددها بين ١٢ ألف رجل و١٥ ألف رجل يكفون وزيادة لإيقاف الترك عند الصحراء ولتخطيم الماليك في داخل مصر، وستصبح هذه القوة نواة القومية

المصرية» (٤) (تاريخ الفكر المصرى الحديث - الجزء الأول).

من الواضح إذن أن فكرة القومية المصرية لم تكن إلا نتاج صراع قوتين كبيرتين على مصر، الفرنسيون من جهة والإنجليز من جهة أخرى، ولم يكتب لهذه الفكرة أن تتحقق أو أريد لها الا تتحقق، إلا أنها عاشت فى ثنايا كل الحكومات التى تعاقبت على حكم مصر بعد ذلك بدءاً من محمد على الذى أفاد كثيراً منها ومن مثلتها: القومية العربية، فى التكريس لحركته الاستقلالية عن الباب العالى، حيث إن الأولى كانت تضمن له حكم مصر حكماً مستقلاً بينما الأخرى تضمن له حكم الأقاليم العربية التابعة للخلافة بالإضافة إلى مصر.

ولا داعى هنا للخوض فى تفاصيل المخططات والمؤامرات التى كانت تحاك فى ذلك الوقت من أطرافها الفاعلة أو الفرعية، لأن الهدف هو قراءة آثار تلك السياسات على نمو الشخصية المصرية، وما تم تمريره إلى بنائها الثقافى من أفكار لكسبها أداة لهذا الطرف أو ذلك فيما يتم التخطيط له.

وتحفل الكتابات التى تناولت تاريخ مصر فى تلك الفترة بإشارات تفيد بأن المصريين لم تكن لديهم أى ارتباطات نفسية بتاريخ مصر القديم تدعوهم إلى تقييم ذواتهم على أساسه، ومن أهم هذه الإشارات ما ورد فى كتاب (وصف مصر) الذى كتبه علماء الحملة الفرنسية نفسها التى يبدأ الحديث عن القومية من عندها، وكذلك ما أوردها سابقاً من وصف الجنرال يعقوب المصرى المصريين بأنهم «وإدعوا جهلاء يكادون لا يعرفون فى الوقت الحاضر إلا عاطفتين تحركان الأخلاق: المصلحة، والخوف».

وإذا كان هذا الاعتراف السابق بعدم وجود ارتباطات نفسية يتطلب قدراً ما من الاعتراف بجهل العامة من المصريين حتى ذلك الوقت بتاريخهم وحضارتهم بعيداً عن الخوض فى أسباب هذا الجهل التى لا يخفى معظمها، إلا أن غياب هذه الارتباطات النفسية يصلح كذلك أن يكون مؤشراً للحكم على الشخصية المصرية (آنذاك) بالسوية والاعتدال، فالمصرى إذا لم يكن يتحرك فيما أورده التاريخ حوله من ثورات على الظلم والاستغلال من دوافع مغلقة على تصور وهمى لذاته بل كان ينطلق من مبادئ ومشاعر إنسانية عامة دافعاً لظلم أو مطالباً بحق مغتصب فى أرض أو رزق أو كرامة، أو مطالباً بحرية، وكلها أمور تمنح حركته عبر التاريخ قدراً من النبل يكتفى إذا ما حصرنا مبررات هذا التحركات فى رغبة ضيقة الأفق يحركها شعور بأفضلية متوهمة جنسية كانت أو عرقية أو حضارية أو غيرها من أمور.

فى ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ ثار الجيش على الملك فاروق الأول بقيادة مجموعة الضباط الأحرار، وفى عام ١٩٥٣ أعلنت الجمهورية المصرية، وكان اللواء محمد نجيب هو أول

رئيس جمهورية مصري، وفى أبريل عام ١٩٥٤ أصبح البكباشى جمال عبد الناصر رئيساً للوزراء، وفى نوفمبر من العام نفسه أصبحت كل السلطات فى يد عبد الناصر الذى تم انتخابه رسمياً رئيساً للبلاد فى يوليو ١٩٥٦.

جاءت الثورة المصرية، قبل أربع سنوات من رحيل المستعمر الإنجليزى - لتصبح - كما يؤرخ لها - بداية الوعي وبداية تكون الشخصية المصرية المعاصرة، وهى إنجاز لا ينبغي التقليل من شأنه، ولكن لا يعنى ذلك أن نغفل عن التنبيه إلى ما أسهمت فيه السياسة التى جاءت بها هذه الثورة - بنوايا قد تكون حسنة - فى تصعيد منحنى تطور الخلل الذى أصاب الشخصية المصرية فى هذا الاتجاه.

ولعل الزعيم الراحل جمال عبد الناصر عندما وجه اهتمامه إلى إعادة بناء الشخصية المصرية وفق الشعار الشهير للثورة (ارفع رأسك يا أذى فقد مضى عهد الاستبداد) لم يكن يتخيل إطلاقاً أن محاولات تنفيذ رغبته تلك سوف تصب - عمداً أو مصادفة - فى التكريس لما أشرنا إلى نشوئه توكيماً مع الدعوة إلى القومية المصرية، وأن هذه الرغبة سوف يساء استغلالها - بحسن أو بسوء نية - عبر السنوات اللاحقة لتضع اللبنة الأكثر صلابة فى التحول الذى أصاب الشخصية المصرية لتصبح المحصلة النهائية شخصية تعانى من تورم فى اعتزازها بمصريتها دون معرفة بالحد الأدنى لأسباب هذا الاعتزاز، ودون أن تمتلك مقومات تحويل هذا الاعتزاز المرضى إلى واقع حقيقى.

وربما تفيد فى تأكيد فرضيتنا هذه قراءة لمفردات الخطاب (الإرشادى) فى الفترة الناصرية (الإعلامى) بعد ذلك إلى عصرنا الحاضر، والممارسات التى تمت على الصعيدين الاجتماعى والسياسى منذ الثورة وحتى الآن.

ولا داعى لأن أذكر هنا بأن هذه القراءة لا تعنى أبداً نفى ما قد تتضمنه أى من الفترات التاريخية التى يرد ذكرها من إيجابيات أو إنجازات أوحى معجزات، ولكنها - مرة أخرى - تحاول أن تتلمس تأثير الممارسات التى تمت فى تلك الفترات على نمو الشخصية المصرية، وما تم تمريره إلى بنائها الثقافى من أفكار.

اختراق النموذج المغلق

ولأن المجال هنا لا يسمح بنشر جميع محاور البحث التى تتبعنا فيها أبرز أشكال الممارسات التى رأينا أنها ساهمت فى الوصول بالمشكلة إلى ذروتها فى فترة الخمسين سنة الماضية على الأقل كما تتبعنا خلالها أيضاً أعراض تلك الشخصيات الثلاثة لدى النخبة من المثقفين والكتاب المصريين من خلال كتاباتهم، ولدى النظام من خلال ممارساته، وربما سنحت الفرصة لنشرها فيما بعد، فإننى حريص على أن أقول أن ما

أثرته من نقاش حول الشخصية المصرية وتحولاتها عند وقوع صدمة الاحتكاك مع الآخر يتسع ليشمل المجتمع المصرى كله نظراً لانهايار السدود المنيعة التي كانت تفرضها مصر حول أنموذجها المغلق الذي تردد في داخله بحرية مطلقة أفكارها حول العبقورية والريادة والتفرد والتميز، فلم يعد الخطاب المعد داخلياً هو الخطاب الوحيد المتاح أمام المصرى بعد الانفتاح المذهل الذى أحدثته ثورة التكنولوجيا والفضائيات وأقنية الاتصال، ولم تعد الصدمة الناتجة عن الاحتكاك والمقارنة وبالتالي اكتشاف زيف الأوهام الذاتية وخداع الصورة الذهنية مقصورة على أولئك الذين ينتقلون إلى الآخر فى محيطه، بل أصبحت صدمة عابرة بعد أن صار الفضاء مكشوفاً على آخرين كثيرين يمتلكون خطابات مختلفة متباينة ومتفاوتة فى القوة والضعف.

وفى اعتقادى أن الأزمة الحقيقية تكمن فى المرحلة الحالية التى ينبغى الانتباه إليها وهى مرحلة تلقى الصدمة التى بدأ المجتمع المصرى يتعرض لها بالفعل، دون أن تكون هناك محاولات لتوقع وقياس ردود الأفعال على تلك الصدمة، وبالتالى غياب سيناريوهات متماسكة للتعامل معها، والتجهيز للتحويلات المذهلة التى من شأن هذا الانفتاح الصادم أن يحدثها فى طبيعة وتركيبه الشخصية المصرية واضعين فى الاعتبار ما عاشت عليه تلك الشخصية طوال عقود من أوهام التفرد والسبق والريادة.

لذلك فإن الحديث عن شخصيات كالمحتال، والكامن والمنسحب وأطياهاها التى تناولناها بالبحث على سعيد انتقال المصرى للعيش فى محيط الآخرين، ينطبق أيضاً على المصريين داخل محيطهم الخاص الذى لم يصبح خاصاً بمعنى (منعزل ومغلق) كما كان من قبل، بمعنى آخر لم يعد (تحت السيطرة) كما كان قبل ثورة الفضائيات المذهلة. وهو أمر يمكن أن نعزو إليه ببساطة العديد من أشكال التحول والظواهر الجديدة الوافدة على المجتمع المصرى، والتغير الحادث فى أنماط السلوك لدى الجميع تقريباً، وتحديدأ لدى الفئات الأكثر استعداداً للتغيير واكتساب قيم وعادات جديدة كالشباب والمراهقين والبسطاء من عامة الشعب.

هوامش:

- ١ - عبد الرحمن الرفاعى، تاريخ الحركة القومية مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٥٥، صفحة ٨٨ .
- ٢ - د.لويس عوض، تاريخ الفكر المصرى الحديث، كتاب الهلال، الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٦٩ .
- ٣ - المرجع السابق صفحة ١٨٩ .
- ٤ - المرجع السابق .

إشكاليات المجتمع المدني وسبل الحل

حافظ أبو سعده

لقد شهد عقد التسعينيات جملة من التغيرات السياسية والاقتصادية - فرضتها التحولات الإقليمية والدولية - وذلك من قبيل التحول نحو اقتصاد السوق، والتحول الديمقراطي، وارتبط بهذه التغيرات تراجع دور الدولة ويزوغ القطاع الأهلى كفاعل جديد، والذي عرف بالقطاع الثالث إلى جانب الحكومة والقطاع الخاص، ويعد إن كانت مفاهيم الرعاية الاجتماعية والعمل الخيري من أهم منطلقات هذا القطاع، طرحت مفاهيم جديدة مثل التنمية والمشاركة الشعبية والتمكين والسعى للتأثير على صانعى القرار السياسى، بل وظهرت نظريات جديدة حول العلاقة بين الدولة والمجتمع تقوم على مفهوم انحسار دور الدولة فى المجتمع ومن هذه النظريات والمدارس ما يهتم بما يسمى بمجتمع الشبكات أو مجتمع بلا مركز أو المجتمع متعدد المراكز.

وقد عكست جميع مؤتمرات الأمم المتحدة خلال التسعينيات ابتداء من قمة الأرض مروراً بمؤتمر القاهرة للسكان ومؤتمر المرأة ببيكين ومؤتمر القمة الاجتماعية بكونهاجن، أهمية دور القطاع الأهلى كشريك فى

التنمية وهذه المؤتمرات تبنت مفهوم الحكم الرشيد بركائزه الثلاث وهي: الدولة والقطاع الخاص والمنظمات غير الحكومية. كما روجت لما سمي بالثقافة المدنية التي تقوم بالاساس على «احترام قواعد الديمقراطية وحقوق الإنسان، وما يرتبط بذلك من قيم التسامح والحوار وقبول الاختلاف، والمؤسسية، والشفافية والمحاسبة».

ومن مظاهر شيوع الثقافة المدنية النمو الواضح سواء على المستوى الكمي أو النوعي الذي شهده القطاع الأهلي العربي خلال العقدین الأخيرین، فمصر مثلاً بلغ عدد المنظمات الأهلية فيها عام ١٩٩٤ حوالي ١٦٢، ١٤ جمعية، ولكن الان يبلغ عددها ١٦،٦٠٠ جمعية، أما المنظمات الحقوقية العربية فقد ارتفع عددها من منظمة واحدة وهي المنظمة العربية لحقوق الإنسان وذلك فى عام ١٩٨٣ ليصل إلى ٢٦ منظمة أو مؤسسة مدنية تتبنى قضايا حقوق الإنسان المختلفة، ووصل عدد هذه الجمعيات فى الأردن وفق تقديرات عام ٢٠٠٠ إلى ٨٣٥ جمعية، وفى تونس ٧٥٦٠ جمعية، وفى الجزائر ٨٤٢ جمعية، وفى السودان ٢٤٦ منظمة، وفى فلسطين ٩٢٦ منظمة، وفى لبنان ١٩٤ هيئة وجمعية، وفى موريتانيا ٦٠٠ منظمة، وفى اليمن ٢٧٨٦ جمعية. وتزداد أهمية هذه الأرقام إذا ما قورنت بما كان عليه الوضع قبل عام ١٩٩٠، ففي السودان مثلاً لم يتجاوز عدد المنظمات حتى عام ١٩٨٩ حوالي ٣٠ منظمة، ولكن فى عام ٢٠٠١ ارتفع إلى ٢٤٦ منظمة، كما أن أغلب الجمعيات الأهلية فى فلسطين قد أنشئت بعد عام ١٩٩٤.

ويدل تنامي أعداد الجمعيات الأهلية على أن هناك حاجة مجتمعية لهذه الجمعيات من ناحية اتساع نشاط ومجال اهتمام العديد من الجمعيات الأهلية لتتجاوز العمل الخيري وتقديم الخدمات والإعانة إلى الاضطلاع بمهام دفاعية مثل حقوق الإنسان والمرأة والبيئة. وهذه المهام تحمل فى طياتها دوراً تغييرياً للمواطن والمجتمع ككل، وذلك بالسعى لفرض القيم المشاركة والشفافية وقبول الآخر. كما تتميز الجمعيات الأهلية عن بقية منظمات المجتمع المدني بأنها أكثر تماساً واتساقاً بالطبقات الشعبية والفقراء والمهمشين.

ومن الملاحظ أن توجهات الحكومات العربية قد اتسمت إزاء العمل الأهلي بالازدواجية وغلبت عليها المسحة الانتهازية فمن ناحية أدى الاهتمام الدولي خاصة من قبل منظمات الأمم المتحدة وهيئة التمويل بمشاركة المنظمات الأهلية فى تحقيق أهداف التنمية وأيضاً نجاحها فى سد الفراغ الذى تركته الدولة إلى زيادة اهتمام الدولة بالمنظمات الأهلية، وربما يكون هذا من ضمن دوافع تلك الحكومات لإنشاء العديد من الجمعيات، بيد أن هذا الاهتمام كان انتقائياً بمعنى أن الدعم والمساندة يتم توجيههما للجمعيات التى تتفق مع سياسة الدولة، أو التى تقوم بدور تنموى مكمل لدورها، فمثلاً مشروع الأسر المنتجة

فى مصر حصل على دعم ضخم من الصندوق الاجتماعى للتنمية وأيضاً الجمعيات المعنية بمسائل الطفولة والأمومة وتنظيم الأسرة، وذلك على خلاف التعامل مع المنظمات الأهلية ذات المسحة السياسية والتي تتعرض للحصار والمواجهة العنيفة، وتوضع فى قفص الاتهام، أما فى الدول الغربية فلا يوجد فاصل بين السياسى والسياسى فى العمل الأهلى.

دور المجتمع المدنى فى دعم قضايا حقوق الإنسان:

أتسم بروز المنظمات الأهلية ذات الصبغة السياسية وأهمها منظمات حقوق الإنسان بمناخ من عدم الثقة والتردد فى التعامل معها من قبل الحكومات العربية، كما تقع صدمات بين الأخيرة ومنظمات حقوق الإنسان من حين لآخر وقد بلغت ذروة تلك الصدمات فى التسعينيات.

وبرغم ذلك نجحت المنظمات الحقوقية العربية فى وضع قضايا حقوق الإنسان على أجندة أعمال الحكومات، وكذلك الرأى العام. فعلى سبيل المثال، جاء إشهار المنظمة المصرية لحقوق الإنسان بعد خوضها معركة طويلة مع الجهة الإدارية أستمرت ما يقرب من ١٨ عاماً حول قى اسم المنظمة واعتراض الجهة الإدارية على أنشطتها. فقد نشأت المنظمة عام ١٩٨٥ كفرع للمنظمة العربية لحقوق الإنسان. وتقدمت فى عام ١٩٨٧ بطلب تسجيل وفق القانون ٣٢ لسنة ١٩٦٤، وهو الطلب الذى قوبل بالرفض من قبل الجهات الإدارية، فلجأت المنظمة للقضاء الإدارى الذى أيد قرار الرفض وفى عام ١٩٩٢ تم الطعن على الحكم أمام المحكمة الإدارية العليا، وظلت القضية متداولة حتى عام ٢٠٠٠. فى هذا الوقت كان قد صدر قانون الجمعيات ١٥٣ لسنة ١٩٩٩، فتقدمت المنظمة المصرية بطلب تسجيل جديد، حيث قررت الجهات الإدارية تأجيل النظر فى الطلب بناء على طلب الأجهزة الأمنية، وهو ما يعنى امتناعاً سلبياً من جهة الإدارة. فقامت المنظمة بدورها بالطعن على القرار أمام محكمة القضاء الإدارى، وحصلت على حكم بالقيود فى سجلات وزارة الشؤون الاجتماعية فى ١/٧/٢٠٠١، إلا أن الجهات الإدارية رفضت تنفيذ الحكم حتى صدور قانون الجمعيات ٢٠٠٢/٨٤، ثم تقدمت المنظمة بطلب تسجيل جديد بناء على الحكم الذى صدر لصالحها، وتم إشهار المنظمة المصرية لحقوق الإنسان كجمعية أهلية، وجاء الاعتراف الرسمى بالمنظمة المصرية من قبل الجهات الإدارية لاحقاً للاعتراف بها من قبل قطاعات اجتماعية وهيئات ومؤسسات وأفراد على المستوى الدولى والمحلى. ومن ناحية أخرى، مازالت هناك مجموعة أخرى من المؤسسات الاجتماعية والجمعيات الأهلية التى ترفض وزارة الشؤون الاجتماعية إشهارها.

وبرغم ما سبق، نجحت المنظمة المصرية وغيرها من المنظمات العربية فى جعل حقوق الإنسان جزءاً من الخطاب الحكومى العربى، ففى عام ١٩٩٠ طالبت المنظمة المصرية بإلغاء عقوبة الجلد من السجنون، وبالفعل قدمت الحكومة مشروع قانون إلى مجلس الشعب بإلغاء تلك العقوبة فى عام ٢٠٠٠، كما يعتبر إنشاء المجلس القومى لحقوق الإنسان ترجمة لضغوط المنظمات الحقوقية على الحكومة المصرية فى هذا الإطار.

المجتمع المدنى وقضايا إشكالية:

أصبح مفهوم الديمقراطية وحقوق الإنسان فى الوقت الحالى من المفردات الأساسية فى الخطاب العالمى والإقليمى والوطنى وجزء لا يتجزأ منه، باعتبارهما يشكلان ركيزة أساسية من ركائز الإصلاح السياسى الذى يعد بدوره المدخل الرئيسى لأى إصلاح آخر.

ومن هذا المنطلق بادرت مؤسسات المجتمع المدنى العربية بمكوناتها الرئيسية فى أوقات كثيرة إلى بلورة الأهداف والغايات والمفاهيم العامة لعملية الإصلاح فى المنطقة، مؤكدة على استعدادها الكامل للمشاركة المباشرة مع الحكومة فى إعداد وتنفيذ خطة عربية وجذرية للإصلاح، إيماناً من تلك المؤسسات بأن مسئولية تنفيذ رؤى الإصلاح ونشر قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان لا تقع على الحكومات العربية وحدها، وإنما تقع على مؤسسات المجتمع المدنى والحكومات معاً.

ولكن منظمات المجتمع المدنى تجاهها عدة إشكاليات وقضايا خلافية نظرحها للمناقشة الأهمى:

١ - إشكالية العلاقة مع الدولة: شركاء/ أتباع

فبمراجعة تقارير التنمية البشرية الصادرة سواء من الأمم المتحدة أو من الحكومة المصرية، نجد أنها تتحدث عن مبدأ «المشاركة» بين المجتمع الأهلى والدولة. ولكن الواقع العلمى يشير إلى خلاف ذلك سواء على مستوى القوانين والتشريعات أو الممارسات. فبرغم نص جميع الدول العربية التى لها دساتير مكتوبة على حق تكوين الجمعيات والحق فى المشاركة والاجتماع السلمى لأهداف مشروعة اتساقاً مع المواثيق الدولية، نجد أن التعامل مع المنظمات الأهلية عبر التشريعات المنظمة لهذه الحقوق كان متناقضاً تماماً مع المواثيق الدولية والدساتير المكتوبة، فقد اعتبرت هذه التشريعات أن الأصل هو حظر تكوين الجمعيات، والاستثناء هو منح هذا الحق بالقيود والإجراءات الصارمة التى يضعها القانون وبالسلطات الواسعة الممنوحة للإدارة، فضلاً عن تحديد الدولة لمجالات

عمل المنظمات الأهلية، وهذا معناه أن مبادرات الأفراد محدودة بتصورات الحكومة للأنشطة التي يجب أن تقوم بها الجمعيات.

وقد قيدت الحكومة المصرية وجود نشاط مؤسسات ومنظمات العمل الأهلي من خلال التشريعات المختلفة التي وضعتها لتنظيم عمل هذا القطاع، ولعل القانون ٢٢ لسنة ١٩٦٤ من أشهرها تقييداً للعمل الأهلي، مما جعله محلاً للانتقاد والهجوم من قبل هيئات أهلية وعندما شرعت الدولة فى طرح مشروع قانون بديل نجح نشطاء العمل الأهلي وحقوق الإنسان على وجه الخصوص فى تشكيل حملة من النقاش والحوار حول القانون وهو ما دفع بالحكومة إلى إشراك بعض قيادات العمل الأهلي وحقوق الإنسان فى لجنة صياغة القانون.

ويصدر القانون ١٥٣ لسنة ١٩٩٩ أعلنت الدولة مرة أخرى تمسكها الشديد باتجاه التقييد للعمل الأهلي وضربت عرض الحائط بآراء نشطاءه، بل وما انتهت إليه لجنة الصياغة للقانون ذات الأغلبية الحكومية، وسرعان ما سقط القانون سريعاً بعد أقل من عام لعدم دستوريته بناء على حكم محكمة الدستورية العليا فى ٣ يونيو عام ٢٠٠٠، فالسرعة التي اكتتفت عملية تمرير القانون فى مجلس الشعب والرغبة فى تجنب المزيد من النقاش والجدل، لم تسفر فقط عن الوقوع فى خطأ إجرائى أدى لعدم دستورية القانون فقط، ولكنه عكس أيضاً أن الممارسات الفعلية للدولة قد غلب عليها سمة التردد.

وجاء القانون رقم ٨٤ لسنة ٢٠٠٢ حاملاً فى جنباته العديد من الإجراءات أو الأدوات التي من شأنها أن تحفظ للجهة الإدارية قدرتها على الإشراف والتدخل فى تحديد هامش الحركة الممنوح للجمعيات الأهلية، وهو ما تجلى فى تباين وجهتى نظر الجهة الإدارية ونظر الرافضين للقانون حول المادة (٤٢) الخاصة بإعطاء حق حل الجمعيات إلى الجهة الإدارية، والمادة (٢) التي تنص على اختصاص القضاء الإدارى فى نظر منازعات الجمعيات والمؤسسات الأهلية، فبموجب القانون تقوم الجهات الإدارية بالإشراف والتدخل فى عمل الجمعيات الأهلية بداية من بحث وفحص مدى توافر شروط تأسيس الجمعية من عدمه والغرض من قيامه، وشروط عضويتها وانتخاب مجالس إدارتها، وانتهاء بفحص ومراقبة ممارساتها وميزانياتها، ومدى التزامها بميدان ومجال نشاطها، وكيفية استغلال واستثمار أموالها.

وتضع الحكومات العربية العقوبات القانونية أمام عمل المنظمة الأهلية بحجة الضبط والرقابة والتنظيم، وهذه الأمور مطلوبة ولكن فى حدود معينة لا ينبغي تجاوزها، فالذى يحدث خلافاً لذلك، بل وقد وصل الأمر إلى حد معاملة الجمعيات الأهلية بطريقة التقصى والمواجهات الأمنية، فالدولة تمارس نوع من «الوصاية والرقابة» على المجتمع

الأهلي، مما يتناقض مع مبدأ «المشاركة». وهذه المشاركة ينبغي أن تبدأ من دور الجمعيات الأهلية في صياغة القوانين الحاكمة لحركتها، وانتهاء بمشاركتها في صنع القرارات. فالعلاقة بين الدول وتلك الجمعيات علاقة تكاملية وتعاونية وليست صراعية. ويشترط لنجاح العلاقة التكاملية أن يكون ذلك في إطار عمل حكومات ديمقراطية تهتم وتستجيب لمصالح القوى الجماعية والمستهدفة من نشاط المنظمات الأهلية. وفي هذه الحالة قد تنجح المنظمات الأهلية في أن تجعل ما تقوم به الحكومة أكثر فعالية، ويمكن للدولة مساندة ما تقوم به المنظمات الأهلية حيث إنها في وضع يؤهلها للاستجابة للاحتياجات الخاصة لقوى اجتماعية معينة. كذلك تستطيع المنظمات الأهلية ترجمة الاحتياجات المحلية إلى صياغة للأهداف وخطة للعمل خاصة أنها تستطيع أن تقيم علاقات وثيقة بالجماعات المحلية وبالحركات الاجتماعية أو المشروعات التي تساندها. كذلك فإن المنظمات الأهلية أقدر من الحكومات على التحرك السريع لأن هيكلها الإداري أكثر مرونة ويتسم عادة بالروح النضالية.

ومن بين معوقات العمل الأهلي الأخرى، البيئة المعادية لحقوق الإنسان والديمقراطية المتواجدة في عدة دول عربية والتي تتمثل في استمرار فرض حالة الطوارئ، وتقشّي التعذيب بصورة وأساليب مختلفة في السجون والمعتقلات ووجود محاكم أمن الدولة العليا والمحاكمات العسكرية.. إلخ.

وفي ظل هذه الوضعية المعادية لحقوق الإنسان والرأى الآخر والتي لا يعطو صوت فيها فوق صوت الحكومة، يناضل نشطاء حقوق الإنسان في الدول العربية من أجل نشر الثقافة الحقوقية بين أوساط الجماهير ويمارسون الضغط السلمى على الحكومة من أجل دفعها لاحترام حقوق الإنسان وأدميته، غير مباليين لما يتعرضون له من اعتقالات ومحاكمات وتعذيب.. إلخ.

ولكن السؤال هنا: كيف تكون هناك مشاركة بين الطرفين في ظل القوانين المقيدة للعمل الأهلي والتي من خلالها تفرض الدولة سيطرتها على المنظمات الأهلية بصورة تجعلها تابعة لها، يضاف إلى ذلك البيئة المعادية للديمقراطية وحقوق الإنسان في الدول العربية التي تعوق بشكل أو بآخر عمل تلك المنظمات؟.

وفي هذا الإطار، نؤكد أنه لن يتحقق التعاون والمشاركة بين الحكومات العربية والجمعيات الأهلية ولاسيما الحقوقية إلا عبر تخلى الأولى عن نهجها لاستعبادي لتلك الجمعيات من العملية السياسية والإصلاحية ولاسيما أنها تمتلك الخبرة الكافية في مجال حقوق الإنسان والديمقراطية، وكذلك عبر رفع الحصار عن نشطاء حقوق الإنسان والسماح لهم بالتعبير عن آرائهم، وتذليل جميع العقبات والقيود القانونية والإدارية

والمالية أمام العمل الأهلى عامة والمنظمات الحقوقية خاصة من أجل ضمان أولاً أدائها الديمقراطى السليم، وثانياً تنشيط وتفعل دورها فى تعزيز ونشر ثقافة حقوق الإنسان والديمقراطية بين صفوف المجتمع العربى باعتبار تلك المؤسسات، مؤسسات وسيطة بين الحكام والشعوب، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال إصلاح البيئة المحيطة بعمل الجمعيات الأهلية كشرط أساسى للإصلاح الديمقراطى.

ولعل المرحلة الحالية تستلزم إشراك جميع القوى السياسية والاجتماعية ومن بينها قوى المجتمع المدنى فى العملية الإصلاحية، وفى هذا الإطار، فلا بد من تثمين الجهود التى بذلتها مؤسسات المجتمع المدنى فى مجال إعمال الفكر حول مفهوم الإصلاح فى العالم العربى وأولوياته واليات تنفيذة ومتابعته وبيان مواقف الأطراف المختلفة منه، وظهرت نتائج هذه الجهود فى وثيقة الإسكندرية الصادرة عن مؤتمر «قضايا الإصلاح العربى: الرؤية واليات التنفيذ» وذلك خلال الفترة من ١٢ - ١٤ مارس ٢٠٠٤، وهذه الوثيقة - التى ولدت على أيدي المنظمات الأهلية العربية - تتصف بالشمولية من خلال المحاور التى تبنتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ومبادرة الاستقلال الثانى الصادرة عن مؤتمر بيروت فى الفترة من ١٩ - ٢٢ مارس ٢٠٠٤، والتى حددت المبادئ العامة المؤطرة لعملية الإصلاح فى العالم العربى، ومؤتمر «أولويات واليات الإصلاح فى العالم العربى»، الذى نظمتها المنظمة المصرية لحقوق الإنسان ومجلة السياسة الدولية ومركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان خلال الفترة من ٥ - ٧ يوليو ٢٠٠٤، وكان من أهم توصياته إنشاء «منبر الإصلاح الديمقراطى فى العالم العربى» بهدف المساهمة فى إطلاق وتنشيط عملية الإصلاح فى الدول العربية، والملتقى الفكرى التاسع للمنظمة المصرية الذى عقد فى شهر فبراير ٢٠٠٥ تحت عنوان «الإصلاح الدستورى بين التعجيل والتأجيل»، الذى تمخض عنه ميلاد «المنبر الدستورى المصرى» ويضم نخبة من ممثلى المجتمع المدنى والأحزاب السياسية وأعضاء مجلسى الشعب والشورى وفقهاء القانون الدستورى، ومن بين أهدافه إدخال تعديلات على دستور ١٩٧١ وصولاً لدستور جديد للبلاد يتماشى مع طبيعة المرحلة الراهنة، ويلبى آمال وطموحات القوى السياسية والحزبية والاجتماعية، ويطلق الحريات أمام الجميع، ويلغى القوانين الاستثنائية بدءاً من قانون الطوارئ ١٩٨١ إلى قانون الحراسة والعيب مروراً بإلغاء أو تعديل قوانين الأحزاب ومباشرة الحقوق السياسية والنقابات المهنية، والصحافة، ويعيد هيكلة السلطة على نحو يحقق التعادل بين السلطات الثلاث مع هيمنة نسبية للسلطة التشريعية على السلطة التنفيذية، لتراقب أداءها وتحاسبها وبما يحقق فى نهاية المطاف تحولاً ديمقراطياً للمجتمع المصرى.

٢ - إشكالية العلاقة بين الداخل والخارج

وتحت هذه النقطة تثار عدة موضوعات مثل التمويل والتطبيع، وعلاقة التمويل بالسيادة الوطنية.. إلخ. وهناك قضايا عملية عديدة يثيرها تمويل المنظمات الأهلية مثل كيفية الحصول على المال، وكيفية الحفاظ عليه وتنميته من أجل استمرارية المؤسسة، والطريقة المثلى لإنفاق المال لتحقيق الفائدة القصوى منه.

والتساؤل هنا: هل الجمعيات الأهلية بحاجة للتمويل الخارجي؟

قضية التمويل على جانب كبير من الأهمية، حيث أنه بلا مصادر مالية للإنفاق على أغراضها لا تستطيع المنظمات الأهلية أن تعمل. وقد اعتمد النشاط الأهلي العربي التقليدي (العمل الخيري) في تمويله أساساً على التبرعات الفردية وأموال الزكاة وإيرادات الأوقاف للأغراض الخيرية وكان نصيب الحكومات قليلاً للغاية. أما المنظمات الأهلية المستحدثة في الدول النامية فتعتمد على المصادر الحكومية من ناحية وعلى التمويل الخارجي من ناحية أخرى. وإن كانت الحكومات قد بدأت في التخلي عن دورها التمويلي. أما التمويل الخارجي فيستلزمه ضرورة حل المعادلة الصعبة وهي: إمكانية الحصول على التمويل من جهة والمحافظة على استقلالية المنظمة من جهة أخرى.

في واقع الأمر أن الجمعيات الأهلية ليست وحدها التي تتلقى تمويلاً من الخارج، فالأحزاب السياسية والقطاع العام نفسه يحصل على تمويل من الخارج؛ وهنا يؤكد أن جميع منظمات حقوق الإنسان تتلقى تمويلاً، ولكنه ينبغي أن يكون مشروطاً بشرطين أولهما: الشفافية وضرورة المحاسبة وإخطار الجهة الإدارية والشئون الاجتماعية والاستئذان منها وثانيهما: الإعلان عن الميزانية السنوية. فالتمويل السري من جهات غير معروفة مرفوض.

وإذا كانت الحكومة المصرية تحظر على الجمعيات تلقي أموال من الخارج فإنها لم تحل مشكلة الكثير من الجمعيات التي تعاني من مشاكل تمويلية، فهناك جمعيات واتحادات لم تتلق أي معونات أو تمويل من الجهة الإدارية لعدة سنوات، أما الصندوق الذي من المفترض أن يدعم الجمعيات، فإن الوصول إليه مرهون بعلاقة إدارة الجمعية بقيادات الوزارة.

٣ - إشكالية العلاقة مع الذات

فلا بد من التعاون والتنسيق والتشبيك بين المنظمات الأهلية وبعضها البعض، وتبادل الخبرات والمعرفة والمهارات في القضايا الحقوقية المختلفة، والبعد عن الخلافات

الشخصية، والتخلي عن «الشخصنة» داخل الجمعية ذاتها، لأن ذلك يلقي بظلاله السلبية على العمل الأهلي، في حين إذا وجدت خطة مشتركة واليات عمل فعالة للضغط على الحكومة، فإن ذلك سيكون له تأثيرات بعيدة المدى، إذ ستنتج هذه المنظمات فى تشكيل لوى جماعى يحقق المصلحة المشتركة والتي تصب فى الأساس لصالح نصره قضايا حقوق الإنسان والديمقراطية.

وإذا نظرنا حولنا إلى خبرات الدول المتقدمة، التي تطور فيها القطاع الثالث إلى حد كبير، سوف يشد اهتمامنا دور منظمات هذا القطاع فى عملية صنع السياسات الامة، وينعكس ذلك على تشكيل لجان عليا مشتركة حكومية وأهلية، وعلى دور فعال للاتصال بالبرلمانيين والتواصل معهم، ويجذب الاهتمام قدرات هذه المنظمات على توفير البيانات والمعلومات الدقيقة عن القضية أو السياسة العامة المستهدفة، وكذلك قدرات هذه المنظمات على التحالف معاً والتشبيك لإحداث التأثير مع توظيف الإعلام كالية للتعبير والتأثير.

ويشير كل ذلك، إلى أن تفعيل دور المنظمات الأهلية فى التأثير فى عملية صنع السياسات، يتحقق من خلال عدة أمور، أولها إدراك هذه المنظمات لدورها الذى يتخطى تقديم الخدمات ويمتد إلى التأثير فى السياسات العامة.

ثانيها: بناء قدرات هذه المنظمات سواء البشرية أو المؤسسية.

وثالثها: قدرات هذه المنظمات على التفاعل معاً والتحالف من أجل التأثير فى مسار السياسات العامة.

وفى هذا الإطار، فإنه من الممكن بلورة ميثاق أخلاقى للممارسة بين منظمات العمل الأهلى وتنفيذه بشكل حازم وديق على أن يركز هذا الميثاق على المحاور التالية:

العلاقة بين القطاع الأهلى والقطاع الحكومى.

العلاقة بين القطاع الأهلى والمنظمات الدولية.

العلاقة بين القطاع الأهلى والمجتمع المحلى.

العلاقة بين القطاع الأهلى نفسه.

مبادئ عامة موجّهة لكيفية إدارة المؤسسة داخليا.

قضايا البناء الديمقراطى والشفافية والمحاسبة والثقافة المؤسسية والإدارة المالية وغيرها.

وهذه الإشكاليات وغيرها نطرحها للمناقشة بغية إيجاد حلول لها، فبغية نجاح مؤسسات المجتمع المدنى فى تحقيق أهدافها والمهام الموكلة إليها، فإنه لابد من إطلاق حرية تشكيلها عبر إزالة العقبات القانونية والإدارية والمالية التى تواجه عمل تلك

الجمعيات ومساعدتها على التمويل عن طريق القطاع الخاص ومساهمات رجال الأعمال، والاعتراف عملياً بقيم حقوق الإنسان فى التشريعات والنظر إليها على أنها أساس التنمية والتطور والديمقراطية، وزيادة دور مؤسسات المجتمع المدنى فى صناعة القرار، وإنشاء علاقة مشاركة بينها وبين الدولة وليست علاقة تبعية، وتغيير المفاهيم والمعايير القديمة فى عمل ونشاط الجمعيات الأهلية لمساعدتها وصولاً إلى مجتمع مدنى قوى قادر على المساهمة فى تعزيز قيم الديمقراطية وحقوق الإنسان.

استراتيجية تفعيل القطاع الأهلى

تتلخص عناصر استراتيجية تفعيل القطاع الأهلى فيما يلى:

١ - إلغاء القيود الواردة بالقانون رقم ٨٤ لسنة ٢٠٠٢ الخاص بالجمعيات والمؤسسات الخاصة، الذى يعد عائقاً جديداً يعرقل العمل الأهلى ويعوق تنمية وتطوير المجتمع المدنى، هذا بالإضافة إلى أنه يمثل تراجعاً عن قوانين الجمعيات فى الدول العربية المجاورة وعلى رأسها المغرب، ولبنان، واليمن، والعودة إلى النصوص الأصلية الواردة بالقانون المدنى التى كانت تنظم العمل الأهلى والتى تم إلغاؤها بالقرار الجمهورى رقم ٢٨٤ لسنة ١٩٥٦م.

٢ - ضرورة ضمان استقلال الجمعيات الأهلية، فحرية تكوين المنظمات والانضمام إليها يجب أن تكون بعيدة عن تدخل الحكومة، كذلك فإن تسجيل وتشكيل المنظمات وأنشطتها لا يجب أن يخضع لتدخلها، كما يجب خضوع تدخل الدولة فى حرية التنظيم للرقابة القضائية، وكذلك تطبيق ما أقرته المواثيق الدولية لحقوق الإنسان وكذلك الدستور المصرى من أسس ومبادئ للعمل وهى:

١ - أن لكل شخص طبيعى أو معنوى الحق فى المشاركة فى تأسيس الجمعيات وإدارتها والانتساب إليها والانسحاب منها بحرية، وأنه لا يجوز وضع القيود على ممارسة هذا الحق غير تلك المنصوص عليها فى الدستور والتى تستوجبها ضروريات المجتمع الديمقراطى.

ب - إعمال المبدأ القانونى الأساسى الذى ترتكز عليه حرية الجمعيات هو حق التأسيس دون حاجة إلى ترخيص أو إذن مسبق فالجمعيات تتأسس بمجرد اتفاق إرادة مؤسسيها ولا يجوز أن تشكل إجراءات التأسيس عوائق وعراقيل أمام تأسيس الجمعيات، ويجب أن تتسم هذه الإجراءات بالسرعة والوضوح والبساطة وبدون تكلفة وألا تخضع للسلطة التقديرية للإدارة.

ج - تدار الجمعية بواسطة هيئاتها المنصوص عليها فى أنظمتها الخاصة ولا يحق

للإدارة العامة التدخل فى عملية تسيير اجتماعاتها أو انتخاباتها أو نشاطاتها أو التأثير عليها.

د- للجمعيات الحق فى تنمية مواردها المالية بما فى ذلك رسوم وتبرعات الأعضاء وقبول الهبات والمنح والمساعدات والقيام بنشاطات من شأنها أن تحقق لها دخلاً يستخدم فى أنشطتها بشرط تحقيق مبدأى الشفافية والمحاسبية.

هـ - يجب الأخذ بمبدأ تناسب الجزاءات مع المخالفات، ولا يجوز توقيع عقوبات جنائية على العمل المدنى للجمعيات أو على أعضائها، وفى مطلق الأحوال لا يمكن أن يقرر أو يحكم بتلك الجزاءات إلا من قبل القضاء بعد ضمان حق الدفاع فى محاكمة علنية وعادلة.

و- إعمال المبدأ بأنه لا يحق للإدارة العامة حل الجمعيات، ولا يمكن أن تخضع الجمعيات للحل إلا بقرار صادر عن هيئاتها الخاصة أو بحكم قضائى نهائى بات وبعد أن تكون قد استفادت الجمعية من حق الدفاع فى محاكمة علنية وعادلة، وفى حالات يجب أن يحددها القانون صراحة وحصرًا.

٣ - التأكيد على ثقافة بناء المؤسسات المدنية، وذلك عبر دعم وترسيخ عدد من العناصر المحددة لهذه الثقافة، والتى يأتى فى مقدمتها العمل على توسيع النزوع نحو العمل الطوعى، وإعمال قواعد المحاسبية والشفافية كقيم أساسية فى الممارسة الديمقراطية، وإعطاء مساحات أكبر للثقافة المدنية عبر وسائل الإعلام، وذلك بالتأكيد على قيام المجتمع المدنى وفى مقدمتها قبول الأخر، وإعلاء قيام الحوار وتوفير ضمانات الحرية العامة فضلاً عن تعزيز الإعلام النقدى وتوسيع المساحات الإعلامية الخاصة بتغطية نشاط المنظمات غير الحكومية.

٤ - ضرورة تفعيل أداء الجمعيات الأهلية عبر:

- رفع القيود التى تفرضها الدولة على عمل الجمعيات الأهلية.

- قيام الجمعيات الأهلية بدور أساسى فى تعليم الديمقراطية، وفى نشر الثقافة السياسية.

- إعمال الجمعيات على المبادئ الديمقراطية فى الإدارة الداخلية، وكذلك تداول السلطة فى المناصب القيادية بالجمعية.

- قيام الجمعيات بتشجيع التطوع ليكون هو السمة المميزة للعمل الأهلى المصرى.

«المهمشون في التاريخ الإسلامى»

أحمد صبرى السيد على

ربما لا يعد اهتمام د. محمود إسماعيل بالحركات الاجتماعية شيئاً جديداً، من حيث تبنيه للمادية التاريخية كمنهج للبحث، وهو ما يشترك فيه معظم الباحثين التاريخيين الماركسيين، إلا أن أبحاث د. محمود إسماعيل تتميز بأنها الأكثر وعياً ونضجاً فى استخدام المنهج المادى والتعامل مع النص، وهو ما تفتقر إليه مثيلاتها من الأبحاث الماركسية والتي تعانى من الازدواجية فى تعاملها مع النصوص فترفض بكل جرأة الاتهامات التى يوجهها مؤرخو السلطة لهذه الحركات بالفساد الأخلاقى، ومن ناحية أخرى تقبل بكل بساطة الاتهامات التى يوجهها نفس المؤرخين وفى نفس النصوص لهذه الحركات بالفساد الدينى، وهى مفارقة لم يقع فيها الدكتور محمود إسماعيل والذى أدرك مدى الربط المتعمد والمدرّوس الذى تقوم به هذه النصوص بين الخروج على الحاكم والخروج على الدين.

فى كتابه الأخير «المهمشون فى التاريخ الإسلامى» يواصل د. محمود

إسماعيل رصده للحركات المجهولة والمشوهة فى التاريخ الإسلامى المدون وهو ليس الكتاب الأول فى هذا المجال حيث سبقه كتاباه المهمان «فرق الشيعة»، «الحركات السرية فى الإسلام» وقد عالج فيهما الدكتور محمود إسماعيل العلاقة بين التطورات الاجتماعية ونشوء الفرق الدينية فى التاريخ الإسلامى، ويبدو الكتاب الأخير كتتويج - ليس نهائياً- لأبحاثه فى هذا الموضوع ، وقد صرح الدكتور محمود إسماعيل فى مقدمة الكتاب أن غايته الأساسية هو تقديم تاريخ لحركات المهمشين فى صورة مقالات مبسطة للمثقفين العاديين لنشر الوعى التاريخى الذى يؤكد الكاتب على أهميته فى قراءة حاضرنا المعقد والمضرب فى أن، ولعل هذا ما يفسر عدم احتواء الكتاب على أى هوامش توثيقية، على أساس أن الكتاب هو تجميع مختصر لنتائج أبحاثه ودراساته فى كتبه السابقة.

فى هذا الإصدار الأخير قدم د. محمود إسماعيل عدة نماذج لحركات وهبات المهمشين، وقد راعى أن تكون متضمنة لجميع الأشكال والأساليب التى استخدمها العوام فى الثورة، وقد تنوعت ما بين الهبات العفوية، والثورات المنظمة التى امتلكت أفكاراً عقائدياً وبرنامجاً بديلاً للوضع القائم، وأخيراً التنظيمات العشوائية التى رغم صدامها مع السلطة لم تكن تمتلك أى برنامج أو أهداف تسعى لتحقيقها، ورغم هذا التنوع فقد افتقد هذا الكتاب الإشارة إلى بعض الثورات الأخرى للمهمشين كانت أكثر قوة وأوسع تأثيراً لعل أهمها ثورة «بابك الخرمى» فى أذربيجان، والثورة «السريدارية» فى خراسان، والواقع أن إحدى سلبيات هذا التنوع هي وضع هذه الأشكال من التعبير الثورى فى مستوى واحد فقد افتقد الكتاب تقييماً نهائياً لمدى جدوى هذه الأشكال من التعبير الثورى فى تحقيق مصالح الكادحين، ورغم أن الأبحاث ذاتها احتوت على انتقادات خاصة بكل حركة فإنها لم تنطرق إلى نقد الشكل الأصيل بقدر ما انتقدت الممارسات التفصيلية.

يبدو واضحاً من مقالات الكتاب استهدافها لتأكيد عدة قواعد فى تاريخ الثورات الاجتماعية استنقاها كاتب هذا المقال من أبحاثه الطويلة فى هذا المجال:

١ - عدم براءة المادة التاريخية المتاحة.

٢ - دور البرجوازية فى رعاية الحركات التنويرية والثورية للمهمشين.

٣ - ضعف الوعى الطبقي فى هذه المرحلة من التاريخ الإسلامى.

٤ - وحدة تاريخ العالم الإسلامى من حيث حركيته وصورته.

٥ - الدور الثانوى للمذاهب الدينية فى الصراع الطبقي.

إن مناقشة هذه القواعد تمثل فى الواقع مناقشة لجزء كبير من رؤية الدكتور محمود للتاريخ الإسلامى والتي تتضح فى كتاباته عموماً وعلى الأخص الكتاب الأكثر أهمية فى هذا المجال، والذي يمثل مشروعه الفكرى والتاريخى «سوسيوولوجيا الفكر الإسلامى».

■ إن استعراض بدايات التدوين التاريخى يؤكد لنا صحة القاعدة الأولى التى تنص على عدم براءة المادة التاريخية المتوافرة، ففي عام ١٤٣ هـ قام الخليفة العباسى الثانى أبو جعفر المنصور بالتشجيع على تدوين العلوم المختلفة وخاصة علمى الحديث والتاريخ، بهدف خدمة الأغراض الدعائية والإعلامية للسلطة العباسية الجديدة، ومن الواضح أن هذين العلمين على وجه الخصوص وضعا تحت مراقبة السلطة التى استخدمتها فى مواجهة الحركات المناهضة.

والمواقع أن وجود صدام طبقي، أو عقائدي، أو سياسى ما بين راوى النص التاريخى والقائمين على الحدث التاريخى الذى يرويه يجعل من المستحيل الحديث عن نص محايد تماماً، فأغلب المصادر التاريخية تتعارض مع الحركات الاجتماعية من النواحي الثلاث. كما أن الاتفاق فى ناحية أو ناحيتين لا يعنى إهمال نقطة الخلاف الموجودة والتي تلقى بظلالها على ما يرويه المؤرخ.

وعلى سبيل المثال فإن المرويات الشيعية الرسمية من صاحب الزنج تتخذ مواقف سلبية عموماً، ومع ذلك فقد ذكرت المعاجم الشيعية أسماء لمؤلفات ألفها بعض الشيعة المقربين من صاحب الزنج، والتي لم يكتب لها البقاء للأسف، ككتاب (أخبار صاحب الزنج) لأحمد بن إبراهيم العمى، وقد كانت كفيلاً بمنحنا رؤية صحيحة ومختلفة تماماً عن هذه الثورة.

● بالنسبة للقاعدة الثانية فقد عزا الدكتور محمود إسماعيل قصور الوعى الذى

شباب معظم حركات المهتمشين فى بعض جوانبه إلى غياب دور البرجوازية والتى وصفها بأنها «عاجزة وهزيلة دافعت عن وجودها والحفاظ على مصالحها، بمهادنة الحكومات القائمة وليس بالثورة عليها وتقويض حكمها» وقد أرجع هزال البرجوازية وعجزها إلى عوامل «جغرا - تاريخية» تتعلق بطبيعة المجتمعات الإسلامية الزراعية الرعوية أساساً وبالتالي فلم تتخلق طبقة وسطى قوية وقادرة على الصراع مع الإقطاع العسكري، بل هونت من هذا الصراع وخفقت حدته، الأمر الذى أتاح للنظم القائمة الدوام والاستمرار.

إن هذا التصور صحيح بكل تأكيد ومن الممكن إضافة عوامل أخرى لضعف البرجوازية، فالملاحظ أن هناك خلافات بين العالمين الشرقى والغربى فى نشأة الدول واضمحلالها، فبينما تنشأ الدول فى العالم الغربى بناء على تطور نمط إنتاج معين، فإن نمط الإنتاج فى الشرق ينشأ ويتطور بناء على رعاية ودعم الدولة، وهو يعود بالطبع إلى العوامل الـ «جغرا - تاريخية» التى أشار إليها الدكتور محمود، فالمسألة الزراعية لم تطرح نفسها بقوة إلا عقب تكوين الوحدة السياسية لا العكس، وهذه الوحدات تنشأ فى الواقع بالاعتماد على وضعها القبلى والجغرافى وليس الطبقي، أما الطبقة التجارية فهى غير قادرة على خوض صراع مع الإقطاع بشكل منفرد بسبب عدم استقلاليتها وارتباطها بالحكم المركزى وخضوعها للاعراف القبلية، وتحول الكثير من أبنائها إلى حيازة الأرض الزراعية، وبالتالي فالأزدهار التجارى كقاعدة يعبر دائماً عن قوة وضع الحكومة المركزية فى مواجهة الطموحات الاستقلالية للإقطاعيين العسكريين، فى حين يشير الانهيار التجارى إلى سيطرة الإقطاع العسكرى وسقوط قوة الحكم المركزى، إن أهم صور هذا الهزال البرجوازى تبدو واضحة فى المذاهب الفقهية والعقائدية، فلم يصمد مذهب واحد من المذاهب التى أنتجتها البرجوازية التجارية كالمعتزلة والكرامية والمرجئة، بل إن المذهبين الوحيدين الباقين من منتجات البرجوازية وهما: الزيدية والإسماعيلية يعانيان من الحصار الجغرافى.

■ القاعدة الثالثة تمثل السبب الثانى فى قصور حركات العوام وهو «ضعف الوعى

الطبقي» يطرح الدكتور محمود إسماعيل هذه القاعدة كتفسير لقصور كل الحركات الاجتماعية، إلا أن الواقع أن ضعف الوعي الطبقي لا يشمل سوى الحركات والتنظيمات العشوائية كـ «الحرافيش» في مصر، وحركات «الأحداث» في الشام، و«الصفورة» في المغرب والأندلس، و«الفتاك» في آسيا الوسطى، وحركات «الفتوة» في الشام والعراق، إضافة إلى الحركات الحرفية كـ «العيارين» في العراق، والتي لم تكن تملك أى أهداف أو طموحات سياسية، ولم يكن لها برنامج اجتماعي بديل، وبالتالي فقد كان بمقدور السلطة القضاء عليها بسهولة بل واستخدامها في مواجهة أعدائها في بعض الأحيان، فيروى ابن جبير في رحلته عن مشاهداته بدمشق، أن حركات «الفتوة» بالشام والتي كانت مؤيدة من صلاح الدين الأيوبي، كانت تقوم بعمليات اغتيال ضد الأهالي الشيعة في دمشق والذين كانوا يمثلون الغالبية العظمى من سكانها في تلك الفترة، والغريب أن المثل الأعلى لزعماء هذه الحركات كان على بن أبي طالب!! وهنا يبدو من الواضح استخدام صلاح الدين لهذه الحركات في مواجهة الشيعة الذين اعتبرهم أعدائه التقليديين لإحداث تغيير في الانتماءات المذهبية لسكان دمشق، وبالتأكيد فإن هذه العمليات لا تتم عن أى وعى طبقي أو سياسي، أما حركات العيارين في العراق والحدادين في الأندلس فلم تكن لها أى مشروعات في مواجهة السلطة القائمة لذلك فقد كان من السهل على السلطة التعامل معها والسيطرة عليها ومن ثم استغلالها.

ومن البديهي أن نجاح الثورة أو فشلها ليس دليلاً على وجود الوعي الطبقي أو انتقائه، ومع ذلك فنفس هذا القدر من الوعي هو الذى نجح العوام عن طريقه في تأسيس دولة القرامطة، والدولة الصفارية، إن الحركات الشعبية والخارجية كانت تمتلك قدراً كبيراً من الوعي الطبقي كما امتلكت برامج اجتماعية بديلة، وبينما كان الشيعة يمثلون مصالح الفلاحين والحرفيين وصغار التجار وهى الطبقات والشرائح التى استفادت من الإجراءات الاقتصادية التى أصدرها على بن أبي طالب.

والواقع أنه حتى الحركات الاجتماعية والتي فشلت في البقاء لفترات طويلة كانت تمتلك وعياً طبقياً كثوراً بابك الخرمي، وثورة أبي الخطاب الأسدي، وثورة المقنع

الخراساني، ولم يكن فشلها ناتجاً عن ضعف الوعي الطبقي بقدر ما كان ناتجاً عن أخطاء تنظيمية أو سياسية.

■ القاعدة الرابعة تبدو مرتبطة برفض الدكتور محمود إسماعيل لنظرية بعض المثقفين المغاربة حول حدوث قطيعة بين المشرق والمغرب الإسلاميين، وبالتالي فقد ضمن الكاتب خمسة نماذج لحركات وهبات قام بها المهتمشون في المغرب الإسلامي والأندلس، وهي بالفعل حملت الكثير من عناصر التشابه مع مثيلاتها في المشرق. وبالتأكيد لا يمكن الاتفاق على وجود قطيعة معرفية بين المشرق والمغرب الإسلاميين في حين أن كل المذاهب الدينية التي اعتنقها المغاربة قادمة أصلاً من الشرق، إلا أنه وفي المقابل هناك بالفعل خصوصية في التاريخ المغربي ففي حين أدت الإجراءات الاقتصادية للخلافة الأموية بالشرق إلى القضاء على الإقطاع القبلي تماماً، كما أدت الثورات العلوية وصعود العباسيين إلى ضعف الانتماء القبلي كوضع اجتماعي، استمرت سيادة هذا النمط في مناطق المغرب إلى فترة متأخرة من الخلافة العباسية، وكانت معظم الحركات المعارضة للحكم تعبيراً عن الصراع ما بين الوضع القبلي السائد في المغرب والأشكال الأخرى للإقطاع في الشرق والتي كانت الدولة العباسية تطمح إلى سيادتها وقد قامت معظم الدول المعارضة للعباسيين بناء على تأييد زعماء قبائل أمازيغية (بربرية) لها.

لقد استدل د. محمود إسماعيل على التشابه فيما بين المشرق والمغرب بحركة «عمر بن حفصون» التي قامت في الأندلس، ورغم اتفاقه مع الدكتور محمود على عدم وجود القطيعة المدعاة بين الشرق والغرب فإن الاستدلال بثورة عمر بن حفصون ربما لا يمثل الدليل الأكثر واقعية، إن من الخطأ الربط بين تاريخ المغرب وتاريخ الأندلس الذي يمتلك وضعاً اقتصادياً واجتماعياً مختلفاً تماماً عن المغرب فقد كان التنوع ما بين عناصر المسلمين ما بين العرب والأمازيغ إضافة إلى خليط من الموالي الفرس والأفارقة وأكثرية من المسلمين من أصول أسبانية دوره في القضاء على سيادة الانتماءات القبلية، خاصة أن المجتمع الأندلسي ذاته لم يكن مجتمعاً قائماً على القبلية قبل دخول الإسلام، فرغم الارتباط الجغرافي والإثنى بين المغاربة والأندلسيين، فإن

الأندلس أقرب إلى الشرق من الناحية الاجتماعية والمعرفية، فبعكس المغرب فقد تنوعت المذاهب الدينية في أوساط الأندلسيين بالإضافة إلى المذهب المالكي، حيث انتشر المذهب المعتزلي، كما أنتشرت المذاهب الشيعية على نطاق واسع كالمذهب الإسماعيلي، والمذهب الإثني عشري بل إن ظاهرة العزاء الحسيني المنتشرة الآن بين الشيعة في العالم الإسلامي بنفس طقوسها بدأت أصلاً في مدينة مرسية وشرق الأندلس، حيث كان يقام مشهد جنازي يجسد استشهاد الحسين بطريقة تمثيلية، ويخضّر القراء والمنشدون لقراءة المراثي الحسينية، كما ألف الموريسكيون كتاباً في مغازي الإمام علي بن أبي طالب يبدو فيه بوضوح آثار الكثير من العقائد المتداولة بين الشيعة، وبالتالي فقد مثلت الأندلس إقليماً أوروبياً له صفاته الخاصة المختلفة عن الشرق الآسيوي والغرب الإفريقي.

إن النماذج الخمسة التي أوردها د. محمود إسماعيل لا يمثل المغرب فيها إلا بنموذجين وهما حركة «حميم المفتري»، وحركات «الصقورة»، وبينما تنتمي الحركة الأولى إلى الطابع المغربي القبلي التقليدي، فإن حركات «الصقورة» هي المثال الأكثر وضوحاً على عناصر التشابه والتواصل الموجودة بين المشرق والمغرب والأندلس، بل يمكننا أن نؤكد أن التشابه ما بين المشرق الإسلامي والأندلس أكبر من التشابه بينه وبين المغرب، ولعل من الملاحظ على الثورات والحركات الأندلسية رغم اتسامها بانعدام الأيدلوجية المذهبية - وهي سمة كل النماذج الأندلسية التي أوردها د. محمود إسماعيل - ارتباطها أكثر بطموحات العوام وعدم اتسامها بأي ملامح قبلية، وتمثل ثورة «عمر بن حفصون» الدليل الأكبر على ما للأندلسيين من خصوصية.

● يتبقى القاعدة الخامسة والتي أشار لها الدكتور محمود إسماعيل في الكتاب في إطار عرضة لثورتي «الخشبية»، و«الزنج الأولى والثانية»، حيث أشار إلى ثانوية دور المذاهب الدينية في الصراع الطبقي، إن هذه القاعدة ربما تصدق على الوضع في الأندلس كما أشرت سالفاً، إلا أن الأوضاع الاجتماعية في مناطق العراق كانت مختلفة، فبغض النظر عن الدلائل التاريخية فإن معظم الثورات الاجتماعية كانت لها انتماءات مذهبية وخاصة التشيع، فقد استفاد الكادحون والحرفيون ومعظمهم من

الموالى - كما أشار د. محمود - من الإجراءات الاقتصادية والاجتماعية لعلى بن أبى طالب، وبالتالي فقد كان للتيار الشيعى شعبيته الجارفة فى أوساط الفلاحين والحرفيين بالكوفة وهم الذين قاموا أساساً بثورة الخشبية بقيادة المختار بن أبى عبيد، ولعل ما يذكره الطبرى عن الشخصية المرتبطة أكثر بهذه الثورة «أبا عمرة كيسان التمار»، وهو مولى فارسى والمحرك الرئيسى للأحداث، أنه عوقب فى عهد معاوية بن أبى سفيان بتهمة التناول على الأمويين والسببية تدليل واضح على تشيع الثورة.

إن السبب الرئيسى لشكوك الدكتور محمود إسماعيل حول ثورة الخشبية هو هذا الكم من الرويات عن المختار والذى يشكك فى انتماءاته ويصفه بالانتهازية والتقلب الفكرى والمذهبي ما بين الانتماء للأزارقة ثم لابن الزبير ثم التشيع وأخيراً استغلال اسم محمد بن الحنفية والزعم بكونه المهدي المنتظر لجذب شيعة الكوفة إليه.

إن نقد هذه الرويات فى الواقع يظهر ما تعانیه من ضعف وتناقض فقد فسرت هذه الرويات اشتراك المختار فى الدفاع عن مكة ضد جيش يزيد بن معاوية مع الأزارقة أنه انتماء لهذه الفرقة، على الرغم من أن هذا الدفاع لم يكن بقيادتهم وإنما بقيادة عبد الله بن الزبير، والغريب أن الرويات التاريخية لم تدع أبداً أن نافع بن الأزرق زعيم الأزارقة من الموالين لابن الزبير بناء على محاربه للأمويين تحت قيادته، فى حين فسرت مبايعة المختار لعبد الله بن الزبير كمناوره سياسية لتحييده مؤقتاً فى أثناء محاولته السيطرة على الكوفة على أنه ولاء لابن الزبير، والواقع أن المختار كان ولاؤه للشيعة منذ البداية كما شارك فى ثورة الحسين وكان أول المستقبلين لمدوب الحسين للكوفيين مسلم بن عقيل واستضافه فى منزله لفترة أما الرويات التى تنقل عنه الترويج لمهيدية محمد بن الحنفية فقد نقلت معظمها على لسان المعادين له وللعلوين كعامر الشعبى راوى البلاط الأموى وأبو الحسن المدائنى راوى العباسيين، إن الموقف الإيجابى للأئمة العلويين وخاصة على بن الحسين من الثورة التى حصلت على مباركته تدليلاً واضحاً على عدم صحة هذه الاتهامات التى تعد تقليدية فى مواجهة ثورة امتلكت عقيدة مخالفة للأرستقراطية ووعياً طبقياً فى مواجهتها.

الأمر ذاته ينطبق على الأوضاع فى البصرة والتي لم تخل من وجود موالين للعلويين وبرز دور هؤلاء بوضوح فى أثناء ثورة الحسين حيث استطاع زعيمهم يزيد بن مسعود النهشلى حشد أتباعه من بنى تميم وبنى حنظلة سراً وتجهيزهم انتظاراً لوصول الحسين إلى الكوفة، والمعروف أن على بن أبى طالب هو أول من استخدم الزنج وعنصر الزط فى الدولة كحرس على بيت مال البصرة، وهو ما يعنى أن جلبهم تم قبل سيطرة الأمويين على العراق، وقد تحسنت أوضاعهم فى عهده كغيرهم من الموالى، إلا أن مشاركتهم فى الأحداث ظلت قليلة، وتذكر المرويات أن أول انتفاضاتهم كانت فى عهد مصعب بن الزبير، الذى خاض صراعاً مع المختار عقب استيلاء الأخير على الكوفة، مما قد يشير إلى علاقتهم بثورة المختار الثقفى.

لقد استدل د. محمود إسماعيل على اعتناق الزنج لمبادئ الخوارج بتلقب زعيمهم «شير زنجى» بلقب الخلافة «أمير المؤمنين»، إن إذاعة الأمويين لهذا الإدعاء مبرراً فقهياً للبطش بهؤلاء الثوار، إضافة إلى إكزاء سلاح العصبية العنصرية لدى القبائل العربية وهو ما حدث بالفعل - كما ذكر د. محمود - والواقع أن الفكر الخارجى على الرغم من إعلانه أحقية كل المسلمين بالإمامة، فإنه على مستوى التطبيق - فى مناطق الشرق - ظل عربياً مترمناً ولم يتقبل بالفعل أى حقوق للموالى فى هذا الشأن، وبالتالي رغم تعاطف الكثيرين من الموالى مع الثورات الخارجية نكابة فى الأمويين فإن قليلاً منهم فقط هم من اعتنقوا هذا المذهب بالفعل.

على أن علاقة ثورة الزنج الثانية بالفكر الشيعى أكثر وضوحاً، فقد انتسب على بن محمد إلى الإمام على بن أبى طالب وعلى الرغم من المرويات الكثيرة المشككة فى نسبه فقد اعترف به العلويون المعاصرون، وانضم بعضهم إليه، كعلى بن زيد وطاهر بن أحمد بن القاسم، ومحمد بن القاسم، والواقع إن إعلان صاحب الزنج لنسبه العلوى هو تدليل على تشيعه، إضافة إلى مناصرة هذا الكم من العلويين له، ووجود شخصيات شيعية إثنى عشرية كالمعلى بن أسد العمى بين المقربين له، ولابد من الإشارة إلى الرقابة للصيقة التى تعرض لها الحسن بن على (الإمام الحادى عشر) والمعاصر لهذه الثورة فى تلك الأثناء والتي انتهت باغتياله كما تروى المصادر

الشيعية ولعل وفاته في سن صغيرة تدليلاً على أنها تمت بطريقة غير طبيعية. إن الجانب المذهبي لم يكن ثانوياً في هذه الثورات المطالبة بتطبيق الشعارات الإسلامية في العدل الاجتماعي والمساواة، وبالتالي فقد كان يجب صياغة هذه المطالب والاستدلال عليها بالآيات القرآنية والسنة النبوية وممارسات الصحابة الأوائل، والتي تعنى بدهاء اعتناق الثوار لمذهب عقائدي يواجه مذهب وفقهاء الدولة، وتصور القنم كل المستضعفين بمختلف انتماءاتهم المذهبية تحت راية زعيم واحد يعد مثالياً بالنسبة لهذه المرحلة التي كانت السيادة فيها للفكر الديني، فمما تشترك فيه الثورات عموماً أن زعماءها يستمرون فترة قبل الإعلان عنها يدعون لمذهبهم سرّاً بين العوام والكادحين الأمر الذي يؤكد التلازم ما بين الثورة وعقيدتها الدينية والتي تعبر أيضاً بصورة ضمنية عن مصالح طبقة معينة كما أشرت سابقاً.

لقد احتوى الكتاب إضافة إلى القواعد السابقة على مناقشة لبعض التساؤلات التاريخية التي مازالت محل بحث ودراسة الكثير من المتخصصين، خاصة في الفصلين الأخيرين، اللذين خصصهما د. محمود إسماعيل لبحث وضع مصر من المد الثوري في التاريخ الإسلامي، والإنتاج الأدبي والإبداعي للمهمشين، وقد أنتج هذا البحث آراء مهمة سواء من ناحية النظرية أو التطبيق، وعلى الرغم من أن التوصل إلى نتائج حاسمة في هذين المبحثين يحمل الكثير من الصعوبة فإن طرح د. محمود إسماعيل هذين المبحثين للمناقشة يمثل بكل تأكيد أحد عناصر التمييز في هذا الكتاب.

محمد مندور والقضية الوطنية

د. إيمان السعيد جلال

استاذ اللغويات المساعد

كلية الألسن - جامعة عين شمس

الجملاء التام «جوهر القضية الوطنية»

حصلت مصر على استقلال صوري بمقتضى تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢، لكن خطوة واحدة نحو الجملاء لم تتخذ. لذلك لم يكن غريباً أن يحمل أول مقال كتبه مندور لصحيفة «الوقد المصري» عنوانه «الجملاء» (١) ذلك المطلب الأساسى من المطالب الوطنية، فقد قويت الروح الوطنية قرب نهايات الحرب، وارتفعت حدة المطالبة بانسحاب قوات الاحتلال بعد أن أسفرت الحرب عن نتائج يمكن أن تفيد منها الشعوب المستضعفة، فقد منيت الدول الاستعمارية بكثير من الضعف سواء فى ذلك الدول التى خرجت من الحرب منتصرة أو منهزمة.

أعرب مندور فى مقاله «الجملاء» عن أمله فى أن يرد الإنجليز الجميل لمصر التى ساندتهم فى أثناء الحرب، وطالب بوجوب تعديل معاهدة ١٩٣٦ (٢) التى لم تعد تصلح أن تكون أساساً يحدد العلاقة بين البلدين: «هناك أمل قوى فى أن تضع الحرب عما قريب أوزارها، ولا ريب أن هذه الأمة التى وفّت بعهودها نحو إنجلترا أكرم الوفاء، تود لو استطاع الإنجليز أن يدركوا حقيقة أمانيتها المشروعة، حتى يستطيع شعبنا أن يحتفظ نحوهم بشعور المهادنة.

بل الود الذى أظهره أيام الشدة، فالأمر كله لم يعد الآن بأيدينا، بل بأيديهم هم، وذلك لأنهم - بلا ريب - يدركون أنه ليس أشق على عزة الشعوب الأبية من أن تسلب حريتها، فيسترقها الأجنبي».

ويقول: «إن بشعبنا لحرقة إلى الحرية، وإنه لمن الخير أن يجاب إلى ما يبغى، وما يجوز أن يحتج بنصوص المعاهدة ومراعيدها، فالحرب القائمة قد غيرت - كما قيل غير مرة - جميع الظروف، ولم يعد هناك أى نوع من أنواع الخطر الذى يهدد بلادنا، بعد أن انهارت الإمبراطورية الإيطالية التى كانت تتاخمنا على الحدود الغربية، كما تتاخم السودان فى الحبشة. ومن هنا لم يعد المصرى يفهم سرّاً لبقاء جندي أجنبي واحد ببلادنا». ولا يخلو الأمر من تهديد خفى بأن ترتفع حرارة كفاح المصريين ضد الوجود البريطانى، إذا لم يبادر بالجلاء عن مصر.. يقول: «ولا شك أنه إذا لم يتم الجلاء المطلق عن بلادنا عقب الحرب مباشرة سيحس كل مصرى أن بقاء أولئك الجند يجرح قوميته، ويسلب استقلاله كل معنى. ومصر التى تغار على استقلال البلاد العربية، وتكافح فى سبيله أنبل كفاح لن تنسى نفسها».

ولزيد من التأكيد والإيضاح كتب مندور - غير مرة - معدداً محدداً الأهداف القومية المصرية التى تسعى إلى تحقيقها، وتسوية موقفها مع الإنجليز.. كتب فى مقال: «مصر ومؤتمر الصلح» (٢) يقول: «وأمانى مصر القومية معروفة محددة، وهى تتلخص فى تقرير السيادة، وتعديل المعاهدة، والجلاء، وتحقيق وحدة وادى النيل، ثم وضع قناة السويس تحت سيطرة مصر وحمايتها، باعتبارها جزءاً من بلادنا، وباعتبار أن الخطر الذى يهددنا قد زال، وأننا نستطيع القيام على حمايتها دون حاجة إلى جيش أجنبي».

ووجد محمد مندور - بعد ذلك - أن الأمر ينبغى ألا يفهم باعتباره رداً للجميل أو باعتباره أمانى قومية، فيؤكد أنها حقوق وطنية.. كتب فى مقال «أمانى أم حقوق» (٤): «إن ما نطلبه اليوم ليس أمانى بل حقوقاً.. وهذا التغيير الذى نقترحه ليس مقصوراً على الألفاظ، بل يتناول الحقائق والمشاعر».

لقد رأينا أناساً يتسالمون عن الثمن الذى دفعناه لما نطلب تحقيقه من أمان، ولو أنهم فطنوا إلى أن الأمر أمر حقوق لا أمان لأمسكوا.. فكما يولد الناس أحراراً، كذلك من حق الأمم الطبيعية أن تعيش حرة ذات سيادة كاملة. ولو أننا فرضنا أن هذه الحرب لم تقم، وأن مصر لم تساهم فيها بشئ، لما تغير شئ من حقوقنا ولو يجب أن نطالب بتلك الحقوق حتى ترد إلينا غير منقوصة».

الدعوة إلى النضال

لم يكن محمد مندور ممن يميلون إلى إثارة الرأى العام، ولكنه بعد حديث طويل متعقل إلى الإنجليز والحكومات المصرية استخدم فيه الجدل والتفنيد بهدف الإقناع بمطالب الوطن، لم

يُجد مندور بدءاً من توجيه حديثه إلى الشعب.

فكتب مخاطباً الأمة، وأضعفاً إياها أمام مسئولياتها، بأن تنتزع حقوقها الدستورية المشروعة في تقرير مصير البلاد.. كتب في مقال: «الكلمة الآن للأمة» (٥) يقول: «لن له حق أن يعمل للوصول إليه. وإذا كنا حقيقة أمة تستحق الاستقلال، وتريد أن تتمتع بسيادتها الخارجية، فعليها أن تثبت أولاً قدرتها على التمتع بالاستقلال الداخلي والسيادة الشعبية. إن أمة على أبواب البت في معاهدة عاتية تقيد بها بالتزامات ثقيلة لم يعد لها ما يبررها. إن أمة يراد تكييلها بقيود وأعباء جديدة، في حلف عالمي يسمونه هيئة السلام، دون أن تفهم ذلك سرّاً، ولا تجد له مقابلاً. إن أمة لها ملايين الجنيهات من الديون إذا لم تدفع انشلت حياتها الاقتصادية كلها واضطربت عملتها. إن أمة مطوقة تطويقاً اقتصادياً يشل تجارتها الخارجية صادراً ووارداً.. إن أمة في أمس الحاجة إلى ثورة إصلاحية داخلية تتناول جميع نواحي حياتها الاجتماعية والثقافية. إن أمة تهب لاستغلال مواردها المعطلة حتى تكافح الفقر، ولا تريد أن تقع تلك الموارد في أيدي الأجنبي أو في أيدي الجشعين من أبنائها.. إن أمة هذا شأنها لا بد لها إذا أرادت الحياة من أن تتحرك، وأن تطلب بحقها في تقرير مصيرها، ولا يجوز لها أن تنتظر عوناً من أحد، أو تنتظر هبة من حكومة لا تريد أن تستمع إلى صوت العقل».

وأطلق هذه الزفرة، بعد أن ضاق صدره بالمماطلة، فكتب في مقال «سياسة كسب الوقت» (٦) يقول: «أما لهذا الليل من آخر؟ سبحانك ربنا! أهكذا قضيت على هذه البلاد الشريفة وعلى هذا الشعب المجيد أن لا تتحقق للوطن عزة، ولا للفرد عزة؟! ولكن الذل لم يدم، ولكن شباب هذا الوطن وشيوخه، ولكن رجاله ونسائه، ولكن أحياءه وشهداءه سيعرفون كيف يفكون إسارهم ويستردون حرياتهم، ويعيشون كراماً، أو يموتون كراماً. فليراوغ الإنجليز كما يريدون، وليتحاولوا حتى لا ندرك فشل المفاوضات إلا بالتجزئة، وعلى أمد طويل، ولتتمكنهم الحكومة المصرية والمفاوض المصري مما يريدون.. فإن كل ذلك لن ينال شيئاً من روح الجهاد التي استيقظت في الشعب، والتي لن تنام.. وليعلم أولئك وهؤلاء أن الشعب ماضٍ إلى ما يريد، وهو لا يريد غير الحرية، الحرية الساحرة العطر، الحرية الشريفة التي لا تساوي الحياة بدونها قلامة ظفر.. وكيف يقف شعب أو يستنيم إلى ذل، وهو يعرف حق المعرفة أن المعتدى على وطنه كالمعتدى على عرضه سواء بسواء».

استقلال البلاد العربية

ويربط مندور بين قضية مصر الوطنية، وقضايا البلاد العربية التي تعاني مرارة الاختلال.. كتب في مقال: «استقلال الدول العربية» (٧) يوضح حقيقة التضج السياسي الذي بلغه العرب، بما يعنى استحالة قبولهم الاحتلال والأطماع الاستعمارية في بلادهم، مستخفاً بمنطق الاحتلال والسطو على أراضي الغير بالقوة: «وإنه حقيقة لأمر عجيب أن تخرج دولة

من الدول من بلادها لتضع يدها على مستعمرات وأسواق تجارية، ثم تريد لتضمن طرق
المواصلات إليها أن تحتل البلاد التي تقع على تلك الطرق...

وأشد من ذلك غرابة أن تستخدم الدول المحتلة قواتها ضد أهالي البلاد المقيمة فيها
لتلزمها طاعتها، ولتبتز منها ما تريد من امتيازات.

والحقيقة أن الأمر ليس قاصراً على مواقع استراتيجية، بل إنه ليمتد إلى امتيازات
اقتصادية وتجارية، هي في الواقع مدار المعركة. والعرب الآخذ عددهم في الازدياد،
والأخذة ثقافتهم في النمو وشعورهم الوطني في الاحتداد حريصون على أن يستكملوا
استقلال بلادهم، وأن يحتفظوا بموارد ثروتهم بين أيديهم وأن يزيلوا كل عقبة تنهض أمام
المشروعات الإصلاحية التي يريدونها، حتى تستقيم حياتهم الاجتماعية، وتتحقق فيها
العدالة الواجبة. وهم في صراحة غير مطمئنين إلى أن الأوروبيين ينظرون بعين الرضا إلى
نهضتهم الاقتصادية والثقافية والاجتماعية، وذلك لأنهم يعلمون أن مثل هذه النهضة لا بد أن
تحطم أغلال الاستعباد».

«نحن نبغى أن نسير قدماً في مضممار الحضارة دون أن يعوقنا أجنبي عن ذلك، أناية
منه وظلماً باغيًا، وذلك لأننا شعوب قديمة، لها كبرياؤها، وليس أشق على نفوسنا من أن
ينظر إلينا كأفراد أو كأمم نظرة الصغار. ونحن نعلم علم اليقين أننا لكي نستحق إكبار
الغير لا بد أن نجاهد لنكون شعباً حراً، أو أفراداً أحراراً يعيشون في مستوى مادي
 واجتماعي لا يقل عن مستوى الدول الأوروبية. وبقيننا أنه لا بد من استقلالنا استقلالاً تاماً،
لنصل إلى هذه الأهداف».

ونحب أن يفهم الأوروبيون أننا ندرك تمام الإدراك أن العالم قد أصبح إلى حد بعيد وحدة
اقتصادية وثقافية، وأنا لا نرفض التعاون وتبادل المنافع مع غيرنا من الدول، ولكننا نريد
أن نقيم ذلك على أساس من التفاهم الصريح.. وأما النفاق من جانبنا أو جانبهم، وأما
المرَاوغة والمداورة فهذه طرق عتيقة عقيمة».

السودان ووحدة وادي النيل

كان السودان تابعاً لمصر بمقتضى معاهدة لندن ١٨٤٠، وبعد الاحتلال البريطاني لمصر
سيطرت بريطانيا على السودان وفرضت على مصر اتفاقيتي ١٨٩٩ اللتين أوجدتا الحكم
الثنائي المصري البريطاني للسودان، بينما انفردت بريطانيا بالإشراف الفعلي عليه. وأخذ
النقوذ المصري في السودان يتقلص بخاصة بعد حادثة مقتل السيرلي ستاك سنة ١٩٢٤.
وحاولت الحكومات المصرية في المفاوضات التالية للحادث أن تسترد كثيراً من سلطاتها في
السودان دون جدوى.

وقد نصت معاهدة ١٩٣٦ على أن تُستمد إدارة السودان من نصوص اتفاقيتي ١٨٩٩، مع
تأجيل الاعتراف بالسيادة المصرية في السودان.



لكن السودانيين أخذوا يتطلعون إلى حق تقرير المصير، وضرورة إبداء رأيهم في المعاهدة، بعد تجاهل رأيهم عند عقد معاهدة ١٩٣٦. وظهرت الحركة الوطنية السودانية التي ضمت تيارين وطنيين، أحدهما يؤمن بالوحدة مع مصر ويؤيدها، والثاني يسعى إلى الانفصال عن مصر، وهو التيار الذي ساندته الإنجليز بما زعموه حول السونة والحكم الذاتي للسودانيين.

شغل مندور بمشكلة السودان، وحدد طبيعتها في مقال: «المشكلة السودانية» (٨) فأكد أن الاحتلال البريطاني للسودان كان جزءاً من خطة الإنجليز للإحاطة بمصر من حدودها الجنوبية، منتهياً إلى أن خروج الإنجليز من السودان أمر بالغ الصعوبة. يقول موضحاً تمسك الإنجليز بالسودان، وأساليبهم في إفساد علاقته بمصر: «الإنجليز إنن حريصون على البقاء في السودان لقيمته الحربية، وبخاصة قيمة موانئه على البحر الأحمر من جهة، وقيمته الاقتصادية من جهة أخرى، وهم يستخدمون في سياستهم هذه شتى السبل، فأحياناً يقولون باستفتاء السودانيين، وأحياناً يلوحون لهم بالحكم الذاتي، وفي النهاية يغرون بعض السودانين نوى الطموح بتمكينهم من بعض الوظائف السودانية، وكل هذا خداع في خداع.

فالاستفتاء يستنكره السودانيون أنفسهم، لأنه سيجرى تحت ضغط السلاح البريطاني.. والحكم الذاتي ليس إلا سرايباً.. وأما الوظائف، فسأج مخدوع من السودانيين من يظن أنه سيلى منها وظيفة واحدة ذات نفوذ، مادام الإنجليز يحتلون بلاده. وإذا فكل ما يلوح به الإنجليز للسودانيين ليس إلا خداعاً، وهم إذا لم يربطوا مصيرهم بمصير مصر ريبطاً صريحاً قلبياً نخشى أن يقعوا فريسة في يد الإنجليز، ويطول بهم الاستعمار، فلا يصلون إلى حكومة ديمقراطية مركزية، ولا إلى اتحاد مع مصر». ويدعو البلدين لتوحيد المواقف لصالحهما معاً: «إن المشكلة السودانية يجب أن تناقش في صراحة، وأن يسارع المصريون والسودانيون فيصلوا إلى كلمة سواء ويعلم الجميع أن الاستعمار إذا فرّق بينهم سيكون للجميع الويل.. وما يجوز أن يخدع أحد منا نفسه، فمصر والسودان محتلان، والخلاص من الاحتلال يتطلب جهاداً».

فلسطين قضية كل العرب

كتب محمد مندور في أعقاب حرب ١٩٤٨ مقال «لن نقبل الركود لقضية فلسطين» (٩). يقول: «لقد تنفس العرب الصعداء عندما تحركت الجيوش العربية في ١٥ مايو الماضي للقضاء على عصابات الصهيونيين، وتخليص العرب من أاثامها، والمحافظة على فلسطين الشهيدة قطراً عربياً موحداً، وبخاصة إذا ذكرنا أن كبح جماح الصهيونيين لن ينقذ فلسطين وحدها منهم، بل سينقذ البلاد العربية كلها، إذ إنهم كالسرطان الذي يخشى أن يتشعب في جميع الجهات، وأن ينفث سمومه في جميع الأقطار العربية حتى ليصح القول

وكتب يوضح المخطط الاستعماري البريطاني لاستمرار السيطرة على مصر تحت اسم الدفاع المشترك. فى مقال عنوانه «هل يصل الإنجليز إلى ما يريدون» (١٢): «وما هم الإنجليز قد تهادوا فى سخريتهم منا، وبلغ بهم الخبث الاستعماري أن اخترعوا مجلساً مشتركاً للدفاع، تواترت الأنباء لسوء الحظ أن الحكومة المصرية الحالية، ومعها نفر من المفوضين قد قبلوا مبدأه، وراح رئيس الوزراء، ورئيس المفاوضات يهون من خطره الداهم، إما بالقول بأنه استشارى، وإما بمحاولة ربطه بنظام الأمن الإقليمي أو بقياسه باتفاق كندا والولايات المتحدة، وكل هذه حجج باطلة كما أوضحنا نحن، ووضع غيرنا من رجال السياسة والقلم، فالاستشارة عرفنا من سنين أن معناها عند الإنجليز الإملاء.. وأما ربط هذا المجلس الذى سيتحكم فى جيشنا وفى كافة مرافقنا وطرق مواصلاتنا وموانينا ومطاراتنا بصفة دائمة، كما قال رئيس الوزراء نفسه، فأمر واضح البطلان.. وليست مصر مجاورة لإنجلترا، ولا مكافئة لها، ولا طليقة من سيطرتها الاستعمارية كما هو الحال بين كندا والولايات المتحدة، ولقد كان فى خلق مجلس الأمن ما كفى ويكفى عن مثل هذه الاتفاقات، والتي لا علاقة لها إطلاقاً بدعوى المحافظة على الأمن والسلام الدوليين».

القوى الدولية الجديدة

وهى القوى الصاعدة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. فقد خرجت الإمبراطورية البريطانية من الحرب وقد تفوقت عليها قوتان عظيمتان. وقد أكد مندور فى مقالاته أن الشرق العربى لن يستبدل سيداً بسيد، أى أنه لن يستبدل الاستعمار السوفييتى بالاستعمار الإنجليزى أو الأمريكى. وبين نمو الوعي السياسى المصرى والعربى، بما جعل العرب جميعاً ييغضون الاستعمار أيًا كانت وجهته.. يقول فى مقال: «الشرق الأوسط بين روسيا وإنجلترا» (١٣): «الجنس العربى كله لم يعد يطبق صبراً على الاستعمار، أيًا كان المستعمر وهو بلا أدنى ريب لا يريد أن يستبدل سيداً بسيد، وإنما يريد أن يتحرر، لأنه يعتقد أنه وصل من الوعي السياسى والتقدم المادى إلى مرحلة لا يمكن أن يستمر معها استعمار».

ويؤكد مندور أن الشرق العربى - ومع مصر - يريد فى إطار هذا الوعي أن يستعين بالاتحاد السوفييتى، وأن يفيد من تأييده لقضاياه دون أن يعنى ذلك وقوعه تحت سيطرته: «من الطبيعى أن يستمع العالم العربى بسرور إلى معاضدة روسيا لقضاياها الوطنية، وليس يعنيه بعد ذلك أن تكون روسيا مدفوعة إلى ذلك بدافع أنانى أو إنسانى، وهو يدرك تمام الإدراك أن البشرية ليست بها ملائكة، وأن المنفعة لا بد أن تمتاز كل شعور، وأن تنازع البقاء وتصارع القوى جبلة ثابتة فى البشر».

ثانياً: القضايا الاقتصادية والاجتماعية

نشر محمد مندور عقب عودته من فرنسا مقالات عدة فى مجلة الثقافة، اتجه فيها إلى عرض أفكار كلية؛ وربط بين مشكلات الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى مصر ربطاً وثيقاً كما فعل فى مقال: دستور الإصلاح، يؤسنا المادى ٢١/١٠/١٩٤١. ومقال: الثقافة والديمقراطية الاجتماعية ٢/١١/١٩٤٢. ثم قام بعد ذلك ببسط هذه الأفكار المترابطة المتداخلة حينما أتاحت له فرصة رئاسة تحرير المصرى، والوفد المصرى والبعث وصوت الأمة.

وإذا كانت الشهور الثلاثة التى قضاها فى رئاسة تحرير «المصرى» غير كافية لعرض أفكاره الإصلاحية فى السياسة والاقتصاد والاجتماع، فإن فرصته كانت رحبة فى الصحف الأخرى.

انطلق محمد مندور فى تأمله الحالة الاجتماعية المتردية لطبقات الشعب الفقيرة من الحالة الاقتصادية، ومن ثم فإن الإصلاح الاجتماعى غير منفصل عن الإصلاح الاقتصادى. كتب فى مقال «مشكلة الفلاح» (١٤) يقول: «الأساس العام لحل مشكلة الفقر فى البلاد هو العدالة فى تمكين الأفراد من وسائل الإنتاج، وكسب كل رجل قوته اليومى بعرق جبينه». لذلك رفض مندور إحسان الغنى على الفقير، وطالب بإعادة توزيع الثروة فى مصر، وأكد أن ذلك لن يكون بتحديد الملكية الزراعية، وإعادة توزيع الأراضى فقط، بل بإعادة توزيع العقارات والمصانع والمناجم وغير ذلك.

«إن الحل الطبيعى لمشكلة الفقر فى البلاد سيحتاج بلا ريب إلى استغلال أتم لمصادر ثروتنا، وتنمية لإنتاجنا العام، ولكنه أيضاً متعلق أشد التعلق بمشكلة التوزيع، ولهذا لا نستطيع إلا أن نؤيد الاقتراح الذى تقدم به الشيخ المحترم محمد بك خطاب إلى المجلس لوضع حد أعلى للملكية، كما أننا مازلنا نطالب بإتمام تشريعات العمال والفلاحين بوضع حد أدنى لأجورهم، وتنظيم وسائل التأمينات الاجتماعية التى تقيهم شر التعطل والشيخوخة والمرض وذلل الإحسان.

ثم إننا قلنا ونكرر أنه لم تعد فى بلاد العالم المتمدين أم لا تأخذ اليوم نظمها المادية بمبدأ التصاعد فى الضريبة غير مصر، وهذا المبدأ هو الذى سيمكن الحكومة من أن تنمى مواردها لتنهض بمرافق هذا الشعب المسكين. وثمة ضريبة التركات، وهى الضريبة الوحيدة التى تتناول رأس المال بإعادة التوزيع، لماذا لا تقرر فى نسب تصاعديّة كافية لإعادة توزيع الملكية فى بلاد لا يستند فيها حق الملكية تاريخياً إلى كسب الإنسان وعرق جبينه.

هذه هى السبل فليسلكها وليدعُ إليها من يريد فى شجاعة حل مشكلتنا الاجتماعية. وأما الإحسان، وإطعام الإنسان لأخيه الإنسان وجبة طعام شفقة به، فذلك شعور جارح لكل إحساس إنسانى، وهو خليق بأن يميت فى نفوس أبناء هذا الشعب الكريم ما فيها من

كرامة».

ويؤكد فى مقال «الحرية الاقتصادية والحرية الاجتماعية» (١٥) على ضرورة الجمع بين المشكلتين الاقتصادية والاجتماعية ومن ثم الجمع بين الحريتين الاقتصادية والاجتماعية «لأن مشكلة الفقر والتحرر من استعباده إنما هى مشكلة إنتاج الثروات، وتوزيعها معاً، ولن يفتى علاج الإنتاج عن ضرورة علاج التوزيع ووضعها على أسس سليمة من العدل... وفى المبدأ القائل بأن لكل بحسب كفايته، ولكل كفاءة بحسب ما تعمل، ما يفتى عن كافة المذاهب وهذا مبدأ أخلاقى إنسانى لا يمكن إلا أن يقبله كل ضمير إنسانى وكل تفكير سياسى نزيه».

«إن باستطاعة بلد من البلاد أن يقضى على الاستغلال الأجنبى، وأن ينمى موارد الثروة فى بلاده، ومع ذلك لا تتحقق الحرية الاجتماعية فيه وذلك لانقضاء ما سميها ولا نزال نسميها بالعدالة الاجتماعية.

إنه من الممكن أن نتصور بلداً من البلاد يعج بالثروات، ومع ذلك يظل السواد الأعظم من شعبه مستعبداً للفقر مستذلاً للعوز، وذلك لأن طريقة كسب الثروات وطريقة توزيعها بين الناس لا تستند إلى أسس عادلة؛ فلا العامل يحصل على ثمرة عمله، ولا الموظف يتقاضى المرتب الذى يتفق مع وضعه الاجتماعى ومسئوليته فى الحياة، ولا أعباء ضريبية توزع على أسس عادلة، ولا الدولة تنهض بواجباتها العاجزة عن القيام بمطالبها لتأصل الأقات فيها».

وطالب مندور بتدخل الدولة لضمان كثير من الحقوق، وهو مبدأ عرف فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وظهر باعتباره رد فعل لمذهب الحرية فى الحياة الاقتصادية. وتدخل الدولة فى الحياة الاجتماعية يتيح التوازن بين الطبقات، ورعاية حقوق كل طبقة.

كتب فى مقال «وظائف الدولة» (١٦) يقول: «فى الحياة الاجتماعية، نرى أن مصر بلغ فيها الظلم الاجتماعى حدًا كبيراً، وإذا كان العالم كله قد سار نحو التدخل لإنصاف الطبقات المظلومة، أتأتى نحن اليوم ونقول للدولة خذى بمبدأ الحرية، مبدأ سميث وريكاردو، ودعى الفرد يعمل، والتجارة تهر؟ لقد أسفرت تلك النظرية عن الحالة التى يعانىها كثير من الشعوب، وبإلتي القوى كان قوياً بنفسه ولكنه قوى بالورثة، فصاحب رأس المال يستغل العامل، والمالك يستغل الفلاح والناشر يستغل الكاتب، وليس لهؤلاء إلا أن تحميمهم الدولة. لقد وضع العالم المتحضر تشاريع العمال، وهذا هو التدخل، واستخدم نظام الضرائب لتحقيق العدل الاجتماعى، وهذا هو التدخل، وأقام الهيئات تفصل بين صاحب العمل والعمال، وهذا هو التدخل. والدولة بعدُ لم تعد حاكماً مستبداً، بل أداة تنفيذ لإرادة الأمة. ثم من الذى سيضمن للفرد علاجه من المرض وقوته إذا أدركته الشيوخة، أو العاهة أو البطالة، أترك ذلك للشعب؟

بقى النشاط الاقتصادي وهنا تدور المعركة.. فأصحاب الديمقراطية الحرة يرون أن المنفعة الشخصية هي أهم ضامن للنجاح في الحياة الاقتصادية. والدولة كشخصية معنوية ينقصها هذا الحافز. وهم يريدون أن يتركوا الفرد ينمي في نفسه روح المبادرة، والقدرة على تحمل المسؤوليات.. ولكن المصلحة الفردية مصلحة أثرة مدمرة، فهناك مصلحة الأمة، ومصالح الأفراد الآخرين، فإذا تعارضت مصلحة الفرد مع مصلحة الجماعة أو مصلحة الفرد مع مصلحة فرد آخر من يوفق بين هذه المصالح إن لم تكن الدولة؟
انظر مثلاً إلى شركات الاحتكار كشركات الماء والكهرباء ببلادنا، ماذا يكون مصيرنا إذا لم تتدخل الدولة لحماية مصالحنا نحن المستهلكين؟».

ومن ناحية أخرى يشيد مندور باتساع فهم مواطنيه لقضايا الوطن، ونمو وعيهم بمشكلاته التي لم تعد سياسية فقط، واندفاع المواطنين طلباً وعمالاً إلى ساحة النضال.. كتب عند تأسيس اللجنة الوطنية للعمال والطلبة مباركاً هذا التفاعل بين فئات الشعب، وهذا الاقتحام لقضايا الوطن المتعلقة. كتب في مقاله: «حدث خطير: اتصال المثقفين بالعمال» (١٧).

«في سنة ١٩١٩ كانت الحرية سياسية بحتة، فليس لها إلا هدف واحد هو إلغاء الحماية وتحقيق الاستقلال، وأما اليوم فقد أصبح من الواضح أن الحركة القائمة لا تعتبر تحقيق الاستقلال نفسه الغاية النهائية التي يقف عندها الجهاد، وذلك لأن الفرد قد أصبح يدرك إدراكاً واضحاً أنه لا خير في إلغاء الرق الخارجى إذا دام الرق الداخلى جاثماً على صدره، وأنه لا جدوى من أن يصبح الوطن عزيزاً إذا ظل الفرد ذليلاً، بل إن التخلص من الاستعمار نفسه ليس إلا وسيلة لرفع مستوى الحياة بين طبقات الشعب، وذلك بمنع الأجنبي من أن يستغل مصادر الثروة في بلادنا.

وليس بكافراً أن ندافع عن قوتنا وقوت أبنائنا ومواطنينا ضد الأجنبي، بل لابد من أن ندافع عنه أيضاً ضد المستغلين من المصريين من الأثرياء الجشعين حتى تتحقق العدالة بين الناس، وتتاح الفرص لكافة المواهب، ويفسح المجال لكل نشاط إنساني منتج. وهذا التفكير هو أقصى ما كنا نطمح فيه، والبلاد كانت بلا ريب سائرة نحوه، ولكنه قد ظهر أخيراً بصعوبة واضحة، وما نظنه سيقف بعد اليوم. قبل أن يبلغ أهدافه التي تتلخص في الديمقراطية السياسية والعدالة الاجتماعية إلى جوار استقلال وادى النيل».

«والذى لا شك فيه هو أن الأمر لم يعد يحتمل تسويقاً، فجموع الأمة عاقدة العزم على تغيير الأوضاع الاجتماعية القائمة وإعادة النظر في الهوية السحيقة التي تفصل بين الفنى والبؤس في مصر».

«وإذا كانت هناك طبقة كبيرة من الأمة، وهي طبقة الفلاحين لم تدرك بعد مدى ما هي فيه من بؤس، ولا تحركت للخلاص منه فإن ذلك أترعما قريب».



الهوامش والتعليقات

- (١) جريدة الوفد المصرى، ١١/٢/١٩٤٥.
- (٢) وقعت مصر مع بريطانيا معاهدة ١٩٣٦ التى أطلق عليها معاهدة الصداقة والتحالف، وتمتد عشرين عامًا من تاريخ توقيعها، وتلزم مصر بتقديم كل صور المساعدة لبريطانيا طالما كانت الأخيرة فى حالة حرب. وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية جرت مطالبة المصريين بإلغائها.
- (٣) جريدة الوفد المصرى، ٢٧/٢/١٩٤٥.
- (٤) جريدة الوفد المصرى، ١٢/٣/١٩٤٥.
- (٥) جريدة الوفد المصرى، ١١/٨/١٩٤٥.
- (٦) جريدة الوفد المصرى، ٤/٦/١٩٤٦.
- (٧) جريدة الوفد المصرى، ١/٦/١٩٤٥.
- (٨) جريدة الوفد المصرى، ١٠/٤/١٩٤٦.
- (٩) جريدة صوت الأمة، ٢٦/٧/١٩٤٨.
- (١٠) جريدة صوت الأمة، ٢٦/٣/١٩٤٨.
- (١١) جريدة الوفد المصرى، ١٩/٢/١٩٤٥.
- (١٢) جريدة الوفد المصرى، ٨/٧/١٩٤٦.
- (١٣) جريدة الوفد المصرى، ٧/١/١٩٤٦.
- (١٤) جريدة الوفد المصرى، ١١/٤/١٩٤٥.
- (١٥) جريدة صوت الأمة، ٤/٢/١٩٤٨.
- (١٦) مجلة الثقافة، ١١/١/١٩٤٤.
- (١٧) مجلة البعث، ١/٣/١٩٤٦.

سكة العشق الأصيل

محمود الشاذلي وتوزيعات علي لحنى الصمود.. الولادة

فريدة النقاش

شهدت السنوات الأخيرة ازدهارا كبيرا لشعر العامية المصرية فتنوعت الأشكال وتعددت الأجيال، وفوق هذا وذاك توغل تأثيره في الحياة الثقافية والأدبية حتى كادت قوته تتوازي مع قوة تقدم الشعب إلى ساحة الفعل والتقرير. يمد شعر العامية جسورا إلى الجمهور الواسع لا فحسب لسهولة إنشاده أو لأنه مكتوب بلغة أقرب إلى الشعب وحياته اليومية وإنما لأن توجهات الغالبية العظمى من الشعراء هي توجهات شعبية وذات مضمون متجدد دائما يسعى إلى أن يكون ثوريا ومقاوما.

وهذا هو الديوان الأول لمحمود الشاذلي الشاعر الذي يحمل لمعات من كل هذه المواصفات مجتمعة ويضيف إليها إسهامه هو : ذلك الاقتراب الصبور من اللغة الفصحى مع الإبقاء على جوهر النسيج العامي وخصويته ولو أننا لا نريد أن نستبعد التجربة التي أخذت

سماتها تتسع عدد مهم من الشعراء بدءاً من قاعود والأبنودي وانتهاءً بحسين حموده وعبد العزيز عبد الظاهر فإن تداخل العامية والفصحى وتطعيم العامية بالفصحى يعنى من بين ما يعنى أن ثمة ارتقاء موعوداً بلغة الشعب هو سبيله إلى التبلور. وإننا بإزاء حساسية جديدة تتخلق ملامحها وتتسع بسرعة النهوض العام وارتفاع مستوى الثقافة العام أيضاً.

محمود الشاذلى واحد من شعراء هذا الجيل الذين يصعب جدا فصل تجربتهم الكفاحية عن مجمل إنتاجهم وعن مراحل تطوره وأشكاله.. فهو ابن حى شعبي فقير هو حى «الدرب الأحمر» يتسم فقره بخصوصية مجاورته للزهر حيث سلطة الدين وقوته الروحية القاهرة تتجسد بصورة مادية مباشرة ومجاورته أيضاً لحي الباطنية، حيث يعيش فى عالم شبه سرى كبار تجار المخدرات ويصنعون محيطاً من العملاء والخدم والصبية والنسوة ويشكلون تركيبة اجتماعية تحيا على عالم البناء الطبقي الصارم وتطعمه وتفرز فيه سؤاتها هناك أيضاً كبار تجار القاهرة.. وهناك تتكدس المقابر بالسكان البؤساء كل طرف يتربص بالآخر وتكتسب عبارات الاجتماعية عادة أبعاد التجربة من سمات مختلفة عن أية تجربة قاهرية أخرى.

ومن بين جميع شعراء العامية من أبناء جيله تحصل الشاذلى على خبرات حياتية جديدة فإن كل واحد من هؤلاء الشعراء لم ينبج من السجن لفترات طالت أو قصرت تماماً كما حدث للشاذلى فإن أحدهم لم يرشح نفسه فى معركة انتخابات عامة كما فعل هو عام ١٩٧٦ حيث تعرف بصورة كثيفة وعميقة على طبيعة المزاج الشعبى وحركة الناس فى لحظة مد ثورى سبقت انتفاضة يناير ١٩٧٧ وأصبحت واحدة من الموضوعات الرئيسية بعد ذلك فى معظم أشعاره فضلاً عن كونه أحد المتهمين الرئيسيين فيها هنا تتلاشى المسافة بين الهم الخاص والهم العام فيكون هذا التلاشى أشعاره التى كتبت معظمها فى فترة هروبه من ملاحقة البوليس إثر الانتفاضة، أما القصائد التى كتبت قبل ذلك فإنها تنتمى جميعاً إلى مناسبات أو قضايا مشابهة أما الحركة الطلابية فى لحظات تأججها المختلفة ٧٢،٧٢،٦٨ أو حرب أكتوبر.. حتى أننا نجد رداً جاهزاً على سؤال نظرحه عادة مع مولد شاعر جديد

بين العامية والفصحى:

لغة محمود الشاذلى قريبة للغاية من اللغة الفصحى فإذا حللنا المفردات الشائعة فى شعره وجدنا أن الاستعمال الغالب لها هو الاستعمال الفصحى ولكن حين تتداخل فى الايقاع العام والحركة داخل القصيدة نجدها منحوتة من صخر الحياة الشعبية وعمقها من «الحروف المسنونة» إلى «الكلمة الجادة» إلى «البراح» بكل الإيحاءات العميقة للكلمة وتعدد استخداماتها الشعبية «وأزرع عيونى العشمانيين فى براكح الغالى / يا بلاد أنت بيا/ وسابتنى للنباب القبيح/ ينهش فى لحمى قد ما بيريد.» إلى الإكثار من استخدام «الشوف» بدلا من النظر أو العين أو الرؤية فالشوف رغم استخدامها العامى كلمة فصوى فى الأصل يطعمها الاستخدام العامى بكثافة وقدرة حسية ومادية بالغة الأثر هى واحدة من السمات الهامة فى الاستخدامات الشعبية مفردات بعينها اكتسبت مع الزمن والتحويلات المتباينة إيقاعا خاصا بها لتنوع فى قدرة الإيحاء ومستوى الدلالة واستخدام الشاذلى المحدد لكلمات عامية فصوى يرتبط بوشائج عميقة مع لغة البطولة وإيقاعها.

ف نجد هذا المقطع الأخير من قصيدة الوصية:

- يا منشدى زدني

- فين أنت يا مسفوح على شطوط الملل

- اضفر همومك بشوقى واستمع مني

- أنا الحسام اللى كان فى غمده مستني

لحظة جموع العدا.....

إلى آخر المقطع

نلاحظ استخدام كلمات التصغير والجموع فإذا ما قارنا هاتين الكلمتين بأشواق المتقدمين فى اتجاه النزال فى المقطع الأول من القصيدة...

ما فى حديث يتسع

من سهر أحلامنا



إلا ويومه الشوق

يعزلها بعد الضنا المتحوطنين بالشوق...

نجد أن الإيقاع البطولى ليس استخداما لكلمات بعينها فسحب وإنما هو يوظف هذه الكلمات فى الإطار العام للإنشاد.. وخاصة إنشاد المداحين للملاحم والسير الشعبية.. الذى ينتقل فى صياغة هنا إلى وعى أرقى لأنه يكشف عن الدوافع العميقة لدى المحاصرين والمقهورين التى تفتح لهم باب صياغة الأحلام والتعبير عنها.. هنا تكتسب الكلمات العامية ذات الأصل الفصحى خصوصية جديدة ليست جمالية فحسب ولكنها اجتماعية كذلك تتعدد الأصوات فى تنظيم قصائد الديوان وتتداخل وتتحوّل. «تتعدد أصوات الأنبياء فى المهد» وتتداخل الأصوات فى الوصية وتتحوّل فى كل القصائد التى يحاور الشاعر فيها نفسه لأنه ثمة هدف واضح يجتهد للتوصل إليه.. واستخلاص مقوماته من قلب هذا البناء المتعدد الأطراف الذى يختاره.....

مفردات التراث

الشعر الحديث عامة مثقل بمفردات التراث سواء كان مكتوبيا بالعامية أو بالفصحى سواء كان غنائيا أو لمحميا وسواء وظف للإنشاد أو للمسرح.. تبرز الأساطير فى أشكال متجددة.. من إيزيس وأزوريس إلى الصور الغامضة للغول والتنين، وتنزل الأساطير من عروشها القديمة والبعيدة لتتوغل فى الذاكرة الشعبية وتدخل فى صلب الحدوتة «كان يا ما كان....» وتنبثق من صلب الصواديت والصور القديمة للجن والعرافيت فى ثياب جديدة تعلم عليها قوة العالم المادى وصراعاته فتلوح جديدة أحيانا ومقحمة أحيانا أخرى...

يبعدى العنصر الدينى فى كلمات هنا وهناك فى بعض قصائد الديوان ولكنه يتوغل فى قصيدة «المهد».

التراث الدينى خاصة فيما يتعلق بالحلال والحرام

ولكن لعل السمة الرئيسية فى شعر الشاذلى بعد نسج - العامية - الفصحى هو احتشاد الصور ومقدرته الخاصة على توليدها ببساطة وتلقائية غالبة تقوم على التداعى البسيط الذى سرعان ما ينطلق من العالم المادى من جديد لتولد صورة

جديدة ولعل أبرز مثل على ذلك قصيدته الأولى رصاص الكلام التي غناها الشيخ أمام عيسى منذ ما يزيد على عشر سنوات وتبدأ بوعد الصمود إلى ما لا نهاية ثم يتحول هذا الوعد إلى صور.

«لو علقولى مشنقة/ أو حتى مليون مشنقة/ حوالين رقبتي ح افكها/ وأخذ حبالها/ وأصنع قلم/ يكتب حروف / لساعة خلاص.. يتماسك المسموع والمنظور والحس المباشر فى «معزوفة غير حزينة» «أشوف الفجر فى لحظة نعاس الغول والتنين/ يلسعنى صريخ الصبي/ فتبادل المسموع والمنظور والحس مواقعها فى تركيبة خاصة تحمل إحياء مغايرا وتدخل فى صميم استخدامه للكلمات حين يبنى صورة. وفى «لحن البداية» «نرى الصبح أيدين ولسان وعيون» مرة أخرى تتكون الصورة من المحسوس والمسموع والمرئى لتصب كما هو الحال فى معظم صورهِ فى معنى الصمود وتنوعاته وحين يلجأ إلى الحلم تصبح الصورة مركبة شريطا من الصور ويتقدم شعرهِ فى اتجاه التجسيد الدارمي:

فى الوصية ويمر فى الحلم الشريط
«الفين وأبور

هاجين من الموت الغويط

نافرين من الصمت الوجيعة

بيشقوا فى قلوب المحجور

ويمحوا فى الأرض الوديعة

عابق دخانهم فى السكك

بيطير النوم م العيون

لكن ما عرفوا ازاي وفين

يتخطوا أوحال البرك

ويعدوا من فوق الجسور».

تقود الصور إلى الألوان.. والألوان لا تحمل فسحج بلالتها الجمالية لكنها ككل مفردات التكوين الشعرى عند الشاذلى من تراكيب وإيقاعات وحركة تقود إلى الهدف المسبق فى «المستنقع» وهى إحدى القصائد الخطابية الزاعقة لصالح مين..

لصالح مين «تشهر بالقلوب العارفة الطاهرة»

تزغلل رغبتك م الشمس

ما تقدر تجابها

ولإ تقدر تفاديها

فى يوم أخضر

ويوم أصفر

ويوم أحمر

ويوم ما نلتقالك لون

الألوان هى المواقف إذن.. وفى «الوصية» الألوان تحدد الخطوط الفاصلة بين العالمين
النقيضين المتصارعين:

إيه يا بروجى الشمس

يا مجمع الطوابير

مالت غصون الشجر

من زحمة العصافير

أفرد دراعات النفير.. أقرد

خلص خيوطنا البيض

من شبكة الأسود.

ترسم الألوان عالما يعتمد على قوة الصورة حيناً وقوة المفردات القوية حيناً آخر
ويتوزع بينهما بما فيه من أفكار ومواقف».

«الوصية» واحدة من أهم قصائد هذا الديوان دلالة على العالم الجنى للشاذلي.

وهى قصيدة حزينة تهجو الوضع الإنسانى وتفويض بالدموع الرومانسية.. لكنها

سرعان ما تخرج بنا من هذه الحالة لسنهض بحرقة الدموع نفسها ويقوة الرؤيا

المستقبلية بكل القوى الكامنة فى الشعر والناس فتسارع إلى التوحد مع الشعب

«كنت أنا العاشق وأنا المعشوق» ومع الطبيعة التى يحويها عمل الإنسان (جيل

السواعد أنا/ شمس الضحى المخلوق)

وثمة وعى عميق بالقدرة والفعالية الإنسانية التي لا تحد «اللحن جوايا/ هادر بصوت الزمن والرغبة والأسرار»... وحين تتبدى هذه القدرة جلية وفاعلة «توضع سيوف الغل فى ضعفى وفى الأغوات، من قبل كان قد بدأ نشيده مفعما عن جموح طفولى غنائى «نفسى أغنى لكل شىء/ عن كل شىء»/ بلهفة الطفل البرئ فى رحلته للاكتشاف»... لكن الاكتشاف كامن أبدا فى الجموع واختيار الفعل لا الكون.. هنالك غطاء لايد من ازاحتة أولا... لايد من المعرفة... الولوج إلى الكون... «واقف أنا على بابك القبلى وقفة لعل والعلة معروفة».

الفرز يحله الغناء والاستنهاض حيث يتصدر المراد - الشعب - المستقبل الذى يستصرخه الشاعر

- يا ماردى غنى

- فىن أنت باللى حكمتك منى

ثم فى المقطع الأخير يتحول إلى منشد

- يا منشدى زدنى

- فىن أنت مسفوح على شطوط الملل

- اضفر همومك بشوقى واستمع منى

يتجلى فى هذه القصيدة القوة الروحية الجامحة للشعب التى تعطى للكلمات طزاجة جديدة ومفاجئة.. الاكتشاف والغناء ينضمان إليه حيث كنوزه المكنونة وحيث هو المراد الموعود.. حيث الأغوات - الأعداء قوى الاستغلال مرادف دائما لضعف ما .. لضعفه هو مثلا لقوى المستقبل.. لهذا الاشتباك بين الخيوط الأبيض والأسود.. ولكنه اشْتِباك لايد منه لكى ينبلع فجر، حين يعرف الثائرون ازاي وفىن «بتخطوا اوحال البرك ويعدوا من فوق الجسور».

فهل لاحت التباشير؟

ذلك سوال ضمنى أو صريح يتردد فى معظم قصائد هذا الديوان .. يا هلترى أن الأوان «نحن دائما فى انتظار العاصفة - حين تستكين الريح يفيض الأسى وينتفش

القلب والعقل فى حماية العاصفة - الوعد العاصفة - الشعب / هب الطوفان لا يبقى ولا يعفى/ هل من دليل فيكم ع يشق له المجرى؟..

تلك العاصفة الموعودة تنتشله هو الصوت المجرى المفعم بالحزن الرومانسى لحظة غياب العاصفة وأنا كنت سابح فى مدار الوهم - قبل اشتعالك بالهوى المحموم: واسم هذه القصيدة «الاختيار» فى القريب تدكى العاصفة دفقة مكثفة من الحقد. ومن تحتك رحاية غل ما يفعل م الدوران».. الحقد هنا إيجابى وخلاق لا يكل لأنه يصب فى مخزن العاصفة الموعودة حيث ينهمر الشعب - الصقر - الاله - المليك بوجوده الغامر فى كل شىء. وحيث يمتلك الشاعر تلك الرؤية الثاقبة التى تجعله يتوحد مع الشعب ضد قوى القهر من طبيعة بشرية فيصبح الصوتان المتمايزان - المغنى وموضوع الغناء صوتا واحدا.

هنالك وعد بالصمود ودعوة له فى تنويعات على المعنى حيث تبرز الحق فى مواجهة الزيف..

أيه راح يعمل فينا الليل والصبح أيدين ولسان وعيون/ كل أخواتنا الرميمين جوه الزنازين» ثم الصمود فى وجه خيانة الخلان والنفس التى لا يبررها أو يغفرها شىء فى هذا العالم..

يقول الحق.. لجل الكذب ما ينزاح».

ذلك التناقض البسيط الطفولى بين الخير والشر بين الحقيقة والزيف بين الصدق والكذب يكتسب معنى أعمق حين يصلها وعد الصمود وعدم الاستسلام لأى هزيمة أو ضعف هذا الوعد الذى يكمن فى كل القصائد تقريبا، ويتحرر لاختبار أليم فى تجربة الحياة ذات الطابع الوطنى والقومى فى قصيدة «سيرا بيوم» التى كتبت عقب حرب أكتوبر مباشرة. وكتب هذه الفكرة عمقا حزينا وغالبا على لسان محارب شاب:

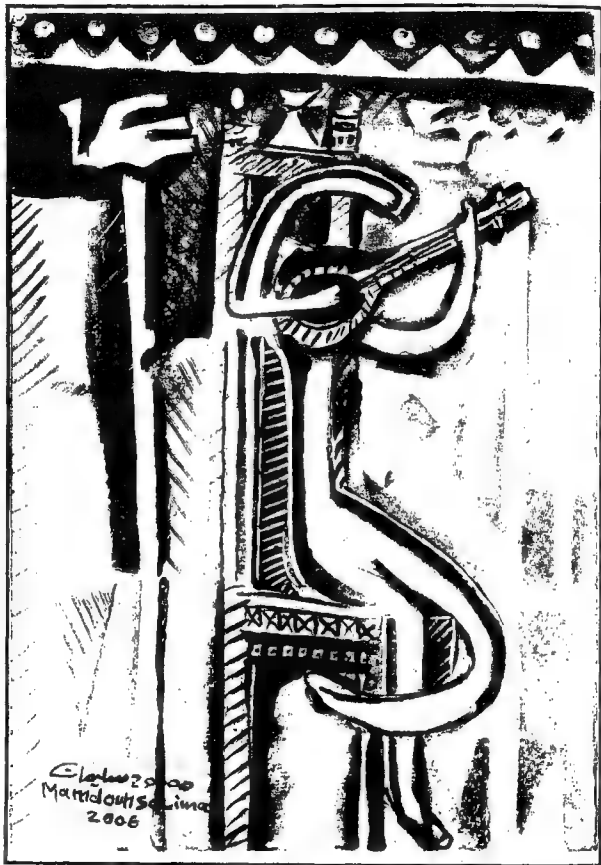
«أبدر شبابى الحى فى طى الشقوق

وأزرع عيوني العثمانين فى براحك الغالي

يا بلاد آتت بيا

وسابتنى للناب القبيح

ينهش فى لحمى قد ما بيريد..»



G. Lobo 2006
Mandolita Lima
2006

ينكشف السر.. فما هي الحرب الذي دفع الأولاد دماءهم وحياتهم فيها لتصبح سلعة
لتجار الحرب والدماء ويكشفون عن وجوههم القبيحة.

ايش لون جنائيك يا سيراييوم

- بعد بوح السر

يتلموا تحت سقوفنا تجار الدما والعهر

ويتبادلوا مع الانتخاب عروض البيع

وعد الصمود هنا يشى بمرارة الخبرة.. بوطاة الخديعة.. صوت الصمود هنا جماعى
اتساقا مع كل الدلالات الوطنية والقومية للحرب وأكثر من ذلك مع الاكتشاف الحثيث
لضرورة أن تكون مواجهة ذلك «العهر» جماعية.

احنا المراد احنا

لا نحتفل بالأمر حين ما تحوم الغريان

ولا تنطفى الأحزان فى قلوبنا بالسخره

ثم فى المقطع التالى.. يرتبط هذا الصمود الموعود بالعالم الآتى:

احنا المراد احنا

احنا ولاد بكرة

ورغم كل شيء إذن نرى أن التباشير قد لاحت وقد أن الأوان لكى نهزم الغربة
وتتوارى الأحزان:

الدنيا مهما تجور

ومهما تدور

مرساها لينا احنا

ويساطها مطرحنا

تكون الدنيا لنا حين نختار الطريق الذى يقودنا إليها خالصة من الشرور والألم..
هذا الطريق يحدوه الشعر - الصوت الجامع:

تبارك اللى ساعة التعطش الحميمة

لومضة اختيار

ولهجة انتتصار

يستل صوته من سخونة الجراح

ودقة المزاهر العليمة

يا دمنا المباح

يا لحمنا الوليمة

الرقص ع السلالم القزان

يدغدغ الرغائب الدميمة

يضاجع المثالب اللثيمة..

الشعر وحسم الاختيار يمزجان بين الألم والفرع من سخونة الجراح ودقة المزاهر العليمة.. ويشيران إلى الاختيار الصحيح.. للسفر من العواصف فى الفعالية الإنسانية الحقيقية من أجل عالم أجمل.

البحر فى النهور

ولا مفر

والوقفة ع الشطوط

امر

وفى الرجوع .. هزيمة

يشب وليد الانتظار والألم فى عشق السفر.. ذلك السفر الذى تتعدد معانيه من سفر الغربية إلى سفر الاكتشاف إلى سفر الريح والتغيير ورائحة الزلازل..

فى قصيدة من أهم قصائد الديوان «المهد» يكتسب الزمن الرومانسى لأول مرة معنى تاريخيا حيث ارتضاء اللجام وانطلاق السهام وارتجاف الوتر للبحر وغناييه الاستهلال التى تدشن ولادة الجديد أه يا سلسل الروح وحرقة الحنين للشرور والأوضاع.

فى هذه القصيدة التى تستمد من قصص القران .. فى قصتى سيدنا يوسف ويونس عناصر الحدوتة خيانة الأخوة ومراوده امرأة العزيز للفتى عن نفسه ثم إضافة عنصر تاريخى آخر وقصة المماليك من تاريخهم القريب يتكرس بكثافة متميزة عناصر التحذير من الخطر ثم عناصر الاساليب فى شعره كله.. وتتعمق فكرة

رئيسية تبدو كمفارقة هنا من العفاف والانطلاق.. وهى فكرة الاختيار الثورى
الاختيار النضالي..

ارضى لجامك يا عفيف البدن

ياللى احتمالك للعفاف غية

ارمى لجامك وانطلق فى الزمن

تتعدد الأصوات فى هذه القصيدة بين الشاعر - الراوى من جهة وبين سلطة القهر
كيان - ملوك فراعنة وتلوح بينهما تلك الحقيقة الكامنة فى القصيدة الدينية والكامنة
أيضاً فى منطلق التاريخ الذى يصدق أبداً.. أن الآتى يأتى والحياة دائماً حبلى
بالمستقبل..

يا دولة الفرعون

ما حد فوق الشط يتجاسر بمد الأيد

لكن يارب الكون

حاذر من المواليدي..

الغزوع الرومانسي:

يبقى المنحنى الأساسى لشعر الشاذلى رومانسيا حيث تتقدم ذات الشاعر الراوى -
المغنى قلب العالم بمطامحا وعشيقها الحميم فيصبح الغريب هو والباحث عن السعادة
هو:

كنت أنا العاشق وأنا وأنا المعشوق/ والضمير الأساسى هو المفرد - الفاعل ..
والشعب يتوحد به والثورة وطالما بقى المفاجأة والحوار الذى يقسم الراوى إلى اثنين
بقيت سمات الرومانسية غائبة وحزينة وحيث اللون الأبيض لون التفاؤل والحماسة
هو اللون الأساسى الذى يلحق رومانسيته بالخطابه.. بحى المراثى (وأه يا سنليل
الروح)...

الكمان والعاصفة

(مختارات من شعر: محمد الماغوط)

إعداد وتقديم:

حلمى سالم

غاب الشاعر السوري العربي الكبير محمد الماغوط عن اثنين وسبعين عاما، وبغياب الماغوط تفقد القصيدة العربية المعاصرة ركنا ركينا من أركانه القليلة، ويفقد شعر النثر رائدا كبيرا من رواده البارزين.

ولد الماغوط في قرية السلمية بمحافظة حماة عام ١٩٣٤، ولم يكمل دراسته الثانوية، ففر من بؤس النظام التعليمي التقليدي، وانخرط في تعليم الحياة ومعرفة الخبرة الحية، اعتقل وهو في العشرين من عمره بتهمة الانضمام للحزب القومي السوري، وكانت تجربة السجن تجربة كاسرة للروح، لازمه ظلها الأسود طيلة السنوات.

ترك الماغوط مجموعات شعرية عديدة منها: حزن في ضوء القمر، غرفة بملايين الجدران، الفرح ليس مهنتي، سأخون وطني، شرق عدن غرب الله، البدوي الأحمر،

كما ترك مسرحيات كثيرة منها: العصفور الأحذب، المهرج، ضيعة تشرين، غربة، كاسك يا وطن، خارج السرب، قيام جلوس، ورواية: «غيمة» وكتب فيلمي: «التقرير» و«الحدود».

كان ديوانه الأول «حزن في ضوء القمر» (الذي صدر عام ١٩٥٩، أثناء انخراطه في جماعة «شعر») تجربة فاتحة في مسيرة قصيدة النثر العربية الحديثة، وتوالت بعده التجارب «من أنسى الحاج وتوفيق صايغ وأدونيس» والأجيال الجديدة التي مثل لها الماغوط شرعية ومرجعية عميقتين.

كنت، منذ بضعة أيام، أستعد لكتابة كلمة موجزة أحيى فيها فوز جائزة العويس بمحمد الماغوط، وأحيى فيها قصيدة النثر التي جعلها الماغوط تفوز بأكبر الجوائز، على غير ما يهوى العموديون والسلفيون وأهل النقل، لكن الماغوط، صاحب المعاكسة والمخالفة، عاكسنا وفاجأنا، بأخر ما في جعبته من مخالفة ومباغثة.

الماغوط هو الشاعر العربي الوحيد الذي بدأ مشواره الطويل بقصيدة النثر، وأنهى مشواره الطويل بقصيدة النثر، فلم ينزلق إليها - كما فعل كثيرون - بعد إقامة قصيرة في نص العمود، أو بعد إقامة قصيرة في نص التفعيلة، من هنا، فهو عندي واحد من أكثر الشعراء مبدئية في تاريخ الشعر العربي الحديث.

والماغوط هو شاعر النثر الوحيد الذي يستثنيه من الهجوم خصوم قصيدة النثر التقليديون، حينما يصبون طوفان اتهاماتهم الجائرة على شعراء قصيدة النثر: مثل ركافة اللغة أو التغرب أو الاستسهال أو العجز أو انعدام الأصالة، في كل هذه التهم «بصرف النظر عن صدقها أو كذبها» فإن التقليديين يخرجون الماغوط من دائرة الاتهام، لأنه تجربة أصيلة عميقة غائرة، ولأنه «نسينج وحده».

أعلم الآن، كم سيحزن دريد لحام (الذي شاركه «التقرير» و«الحدود» و«كاسك يا وطن»)، وكم سيحزن أبوحيان التوحيدي، فهو مثله غريب في وطنه، وقال منذ قرون: «هذا غريب لم يتزحزح عن مسقط رأسه/ ولم يتزعزع عن مهب أنفاسه/ وأغرب الغريان من صار غريبا في وطنه/ وأبعد البعداء من كان بعيدا في محل قربه».

وكم سيحزن سعد الله ونوس وممدوح عدوان وأمل دنقل، فقد كانوا جراحين مثله، ومجروحين.

سلاما لمحمد الماغوط، الرجل الذى قال، فى حوارهِ مع عبده وازن: «إننى أحترم كل قصيدة، حتى لو كانت فاشلة، ولا أهزأ من أى قصيدة».

وقال: «أنا شاعر مقاومة، ولكن ليس على طريقة الشعراء المنبريين الذين يصيحون ويصرخون».

ووصل عشقه المرير للشعر إلى أن صاح به: «سئمتك أيها الشعر، أيتها الجيفة الخالدة».

سلاما للشاعر الذى غنى «خارج السرب»، وكان يتقدم إلى منصة استلام جائزة العويس، وهو يردد فى سره:

«أخذوا سيفى كمحارب،
وقلمى كشاعر،
وريشتى كرسام،
وقينارتى كفجري،
وأعادوا لى كل شيء،
وأنا فى طريقى إلى المقبرة،
ماذا أقول لهم
أكثر مما يقوله الكمان
للعاصفة».

عتابا معاصرة

الذين ملؤوا قلبي بالرعب
ورأسى بالشيب المبكر
وقد حى بالدموع
وصدري بالسعال
وأرصفتي بالحفاة
وجدراني بالنعوات
وليلي بالآرق
وأحلامي بالكوابيس



وحرموني براءتي كطفل
وقارنى كعجوز
ويلاغتي كمتحدث
وصبرى كمستمع
وأطيانى كأمرير
وزاويتي كمتسول
وفرأستي كبديوي
ودهشتى كمسافر
وحينى كعائد



ثم أخذوا سيفى كحارب

وقلمى كشاعر
وريشتى كرسام

وقيثارتى كنجري

وأعادوا لى كل شىء وأنا فى الطريق
إلى المقبرة،
ماذا أقول لهم أكثر مما يقوله
الكمان للعاصفة

الخارج

نحن الأقلية الصامتة بين مواند
الدرجة الأولى
والأكثرية الثرثرة فى مطابخها
بناة الأهرامات المعاصرة
وأدلة الطيور إلى الأقفاس
والسفن إلى الضباب وجبال الجليد



لم نكن نعلم أبداً
إن كنا عصابة، أو حزباً، أو قطعياً،
أم ضرباً من الجنون، والبرداء،
وأطباق القش، والتعليم المجاني،
والعتبات المقدسة،
والأخلاق الحميدة، وغياهب
المجهول؟؟

ولم ندرك قوتنا الضاغطة
إلا فى وسائط النقل
أو ونحن نتدافع للخروج من المدارس



الريفية

للتبول على جدرانها من الخارج
أو فى خلاء الوطن الحبيب
لأن مخصصات الصرف الصحي
تنفق على المواكب والاحتفالات
وتنظيف سمعتنا الدولية
والرد على الإعلام العادي



كل حريق متعمد

أو إنذار خاطئ

أو محاولة اغتيال فاشلة

أو مكالمة من مجهول

أو استغاثة عاجلة

نحن وراءها

وحيث توجد جنازة

نكون بداخلها، أو وراءها!

وحيث يوجد الظلم والقهر والدم

«نكون أو لا نكون»

كما يقول الشاعر الليبي الأصل ولیم

شكسبير

نحن السراب الخادع فى كل

صحراء

والأفعى الملتفة فى كل بئر

والحلقة المقفودة فى كل درع

والقاعدة الشعبية لكل طاغية

والقاعدة الرخامية لكل قبر

والمفقودين

الذين لا يعثر لهم على أى أثر

فى كل حطام



كل انتخابات نتيجتها ٩٩.٠٠ أو ٩٩.٩٩

فى المئة

نحن هذا الواحد ، أو هذا العشر

فى المئة

نحن الصندوق الأسود

فى كل طائرة أو سفينة

وفى كل حزب، أو منظمة رسمية

أو شعبية

أو احتلال أو استقلال

وفى كل شركة، أو مؤسسة خيرية

أو دينية

أو محطة فضائية، أو صحيفة قومية،

أو مسرح ملتزم

قبل أن تقع الكارثة

على القارئ، والمشهد، والمناضل

ولن نجيب على كل الأسئلة

أمام أى لجنة تحقيق

لأننا سنتحول إلى «صندوق فرجة»



كما نعرف مثلاً

ولذلك نجلس على فوهة البركان
ونحن نتشاب ونلعب الورق، والترد
كما نجلس فى مقهى
حتى ينبت الريش على جناحنا
العسكري

أحلام وكوابيس
ببعض الشعر، والأفلام الوثائقية،
والصور الفوتوغرافية، واللوحات
المائية،
وبعض الموسيقى الحائمة، والناي
المنفرد...
تفاهمت مع الأفق والوحل، وريح
السموم
مع كآبة الخريف، ووحشة الشتاء
والنيازك البعيدة، وبحر الظلمات.
مع جنون العظمة
والبطولة الفردية
وانفصام الشخصية
ودوافع الانتحار
مع غربة الطيور، وخوف الأطفال
وعاهات الولادة
والحمم الطائشة
والقنابل الذكية

لماذا انتحر حارى!
وقتل كمال خير بك بألف رصاصة
فى جبينه دفعة واحدة
وحتى من قتل لومومبا وذو الفقار
على بوتو

ولماذا أطيح بثورة مصدق
وخلع الشاه
ونصب قمبير جديداً فى المنطقة
ومن جعل عبد الناصر يدخن مائة
لغافة فى اليوم
ونعرف ماذا جرى فى البلقان
وما يجرى الآن فى الجزائر،
والشيشان
ولماذا فصل جنوب السودان
عن شماله
ويراد فصل لحم العراق عن عظمه
فنحن نستطيع أن نقرأ بين السطور،
والجماجم والأنقاض
ونستقري، ونشم، ونستشم، ونحلل
ما يجرى حولنا حدثاً.. حدثاً
ولكنهم لا يسمحون لنا فى هذه
المرحلة،
بتحليل أى شىء، أكثر من برادنا،
ويعد موعد مسبق.



دينية أو أحكاماً عرفية، أو دروعاً
بشرية، أو مقابر جماعية، أو نهضة
سياحية...

ولا يبالي بشرف أو عدالة،
أو كرامة، أو حرية
بيمين أو يسار، أو شمال أو جنوب.
لقد أكل كل مراجعي، ووثائقي،
ومستسكاتي،
وجداولي، وإحصائياتي، الشخصية
والرسمية،

وخرجت من الحوار معه،
منبوش الشعر، أشعث اللحية،

ممزق الثياب،
مثل رحالة فى عاصفة رملية
لا أرى أحداً
ولا أحد يراني.

وكل دموع الفقراء الفائضة
عن حاجاتهم
وكل الامهم وأحلامهم الهائمة
فى الطرقات،
تصب فى دفاتري، كما تصب
المجارير فى البحر.

وعلى أن أفرزها وأنسقها
حسب الأقدمية والأهمية.
وحسب مصدرها وطائفتها،

والسيوف البتارة
والدعاوى الكيدية
وجرائم الشرف.

مع البدانة، وإنقاص الوزن
والعضلات المفتولة، والكمال الجسماني
وشقوق الأرض، وتمزق الأقدام
مع الغابات والوحوش الكاسرة
والفيلة، والبوم المنعزل، والأحياء
الدقيقة

مع وهن الشيخوخة وترقق العظام
والأمراض المستعصية، وأدوات
التعذيب...

ما عدا غول الشعر والنثر
والطفولة والشيخوخة
والعلم والمنطق والأساطير
والصنكة، والعزيمة، وبعد النظر:
الجوع...

إنه لا يفهم شعراً ولا نثراً
ولا يأخذ بحجة أو بيئة
ولا يقدر ظرفاً طازناً، أو مشكلة
عائلية أو مأساة عاطفية..

أو مرحلة حساسة، أو منعطفاً تاريخياً،
أو مصالح دولية، أو توازنات
إقليمية.. أو مفاوضات مصيرية
أو تقاليد مرعية، أو اعتبارات



يصهل ناخراً مستعجلاً بانتظاري
ولكن عندما وضعت يدي
على ركبتني،
وحاولت النهوض، لامتطائه...
أدركتني الشيوخوخة!!

لعق المبرد

مذ كنت في مهدى الشعري الأول
أعلك قصائد هوميروس، وجلجامش
وأضرب قدمي المعاجم والمصطلحات
مع الغطاء...

حاصروني في طروادة
وفى روما
وفى أثينا
وفى عكا
وخراسان
والفسطاط
وسمرقند، وستاليتفراد
وقلعة صلاح الدين.
وتحت الأسرة، وتحت الجسور
وفى ممرات خيبر
واقبية الخمور، واقبية التعذيب
ثم حطموا كل الجدران من حولي،
وأبقوا على الأغلال!!

وماضيها وحاضرها.

كأى مؤرشف بيروقراطي
في دهاليز الثورة البلشفية:
هذه للدراسة..
هذه للحفظ
وتلك للتريث.

ثم أوقع عليها بقدمي الحافية
وأغط في نوم عميق
ووجهي مغطى بالدموع،
والملفات!!
لا..

وصرخت صرخة مدوية
ارتجت لها الأرض.

وكل ما عليها ما عد «البنوك»..
لا نوم، لا دموع، لا دهاليز بعد
الآن..

لا شيء غير.. الثورة
وجهزت جيشاً جراراً من ورق
الخريف

ودرعاً، سيفاً قاطعاً من ريح الشمال
وخوذة من الدموع الصلبة،
التي لا يخترقها الرصاص،
وكأن جواد الثورة،
بزينته، وأجراسه، وسرجه
الشاعر

ولذلك أنا بطيء كالشمس
فى الحركة، والفهم، والاستدراك،
والاستيعاب.

ومع ذلك،

أسير بسرعة ألف عقدة نفسية
فى الساعة،

فى أى اتجاه،

ونحو أى هدف...

ولذلك، فأية زلزلة بعد الآن

سوف تتسع لقيودي، وحركة

ذراعى؟

وأى قاض، أو حاكم عرفى،

أو نائب عام

سيتحمل سلطة لسانى

والرذاذ المتطاير من شفتى؟

وأى حرس، أو حراب، أو حجارة

رجم

ستقف فى وجه قصائدى المجنونة

وهى تخرج إلى الناس

عارية الصدر، والعجز

منبوذة الحروف، والعناوين

والفواصل

مثل خولة والخنساء؟

ثم ماذا تفعل سيوف الشرف الرفيع

مع الأشجار التى تتعري

علناً فى الخريف؟

وأية قنبلة ذكية أو غبية

ستلحق بى من الدمار

أكثر مما أنا فيه؟!؟

فأبعدوا مناديل السل عن أفواهكم

وانزعوا النظارات الطبية والشمسية

عن عيونكم

ونظفوا آذانكم من الصملاخ

ورواسب الشعر، والأناشيد

التي تغزلت بكم

ومن كل الآمال والأحلام

التي نفختم بها أوداجكم

والمسوى كضريح

وانظروا إلى كفافى

واسمعونى كهدير:

«لا بد لنا فى نهاية المطاف

من فتح علبة السردين

بأصابعنا، وأسناننا!!»

ولذلك.. أهيئوا من يهينكم

وجوعوا من يجوعكم

وشردوا من يشردكم

وأذلوا من يذلكم

وطاردوا من يطاردكم

واغتصبوا نساء من يقتصب نساءكم

وأهدموا قلاع وحصون من يهدم

خمسون عاماً وأنا أسير وأسير..

ولم أصل إلى شئ!

هل الخطأ فى الطريق،

أم فى قدمي؟

كما أبحرت أكثر وأبعد مما أبحر

كولومبس

دون أن تلوح فى الأفق

تباشير أمريكا، أو حتى «تانزانيا»

جديدة!!

ولكننى أعرف لماذا؟



أحب التسكع والبطالة ومقاهى الرصيف

ولكننى أحب الرصيف أكثر



أحب الغابات والمروج اللانهاية

ولكننى أحب الخريف أكثر.



أحب الزهور والرياحين والعطور

الباريسية

ولكننى أحب رائحة الغبار أكثر.



أحب الأبواب والنوافذ المغلقة

والاصطلاء على نيران المواقد

ولكننى أحب الزمهرير فى الخارج

أكثر.

بيوتكم وأكوأخكم

فليسوا أكثر مناعة من الباستيل.

وعند حدوث أى نزاع

حول شطف درج، أو تصديق

معاملة، أو شهادة حسن سلوك

لا تلجأوا إلى المحاكم ومتاهاتها

المرعبة

بل إلى الكهوف والجبال، والغابات

والمستنقعات.

فالوشايات والملاحقات والمداهمات

والجوع والرعب والقهر والعار

صاروا من «الكماليات» بالنسبة لنا.

المهم..

حتى حيوانات السيرك، وفئران

التجارب،

يجب أن لا تفقد أملها فى المستقبل،

بعد الآن...

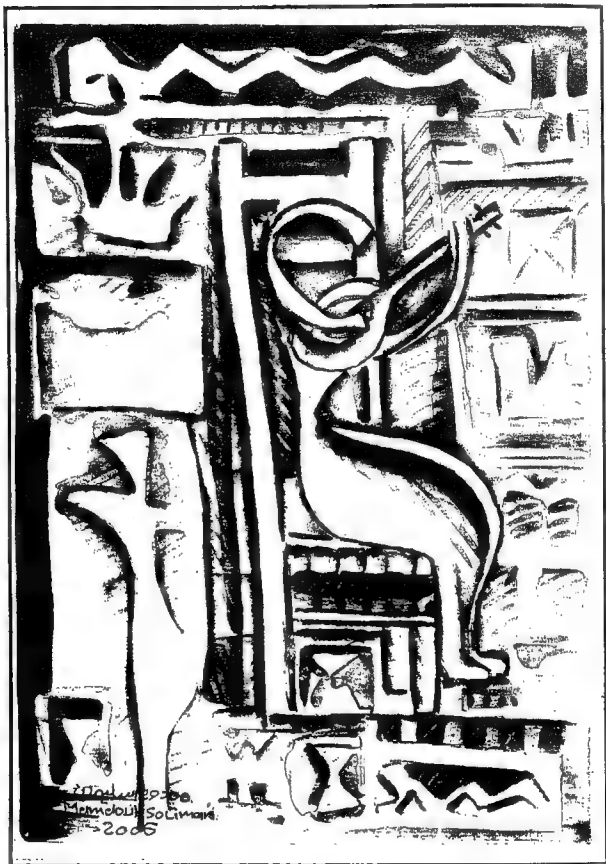
شوارد الدم

أيتها النظرات الكسيحة بالبنفسج

يا بركة السنونو الزرقاء

لقد عاد الأرق القديم

يضرب صدغى كخطاب جبلى.



الجادين، والعشاق الجادين،
والقبلات الجادة
ولكننى أحب ابتسامة الجيوكندا
الغامضة والساخرة إلى الأبد أكثر.



أحب القادة العظام والقمصان
المضادة للرصاص
ولكننى أحب الرصاص أكثر.



أحب العزلة والصوامع
والتصوف فى أعلى الأديرة والجبال
ولكننى أحب زحام الملاجئ أكثر.



أحب الحدائق المعلقة وناطحات
السحاب
ولكننى أحب الزلازل والقصف
الجوى أكثر.



أحب الهدوء والطمأنينة وراحة البال
ولكننى أحب الغيظ وصرير
الأسنان أكثر.



أحب الشمس والقمر والنجوم
ولكننى أحب الظلام أكثر.



أحب النظافة والاستحمام
والعتبات الصقيلة وورق الجدران
ولكننى أحب الوحول أكثر.



أحب الشهيق والزفير ورياضة الصباح
ولكننى أحب السعال والدخان أكثر.
أحب العلم والعولة والمنطق والنطق
السليم

ولكننى أحب هذيان البرداء أكثر.



أحب حفيف الأشجار وشدو البلايل
وتغريد العصافير
ولكننى أحب أبواق الإسعاف أكثر.



أحب الحصون المنيعة والقلاع الخالدة
ولكننى أحب الانقراض أكثر.



أحب القلوع والأشعة الخفاقة،
والصيادين المبكرين المسالمين
ولكننى أحب الأمواج أكثر.



أحب الأدب الجاد، والسياسة الجادة،
والأحزاب الجادة
والخطباء الجادين، والقضاة

قصيدة غرام أو طعنة خنجر
فأنا متشرد وجريح
أحب المطر وأنين الأمواج البعيدة
من أعماق النوم أستيقظ
لأفكر بركبة امرأة شهية رأيتها
ذات يوم
لأعقر الخمرة وأقرض الشعر
قل لحبيبتى ليلى
ذات الفم السكران والقدمين
الحريريتين
إننى مريض ومشتاق إليها
إننى ألمح آثار أقدام على قلبي
دمشق يا عربة السبايا الوردية
وأنا راقد فى غرفتي
أكتب وأحلم وأرنو إلى المارة
من قلب السماء العالية
أسمع وجيب لحمك العارى.
عشرون عاماً ونحن ندق أبوابك
الصلدة

والمطر يتساقط على ثيابنا وأطفالنا
ووجوهنا المختنقة بالسعال الجارح
تبدو حزينة كالوداع صفراء كالسل
ورياح البرارى الموحشة
تنتقل تواحنا
إلى الأزقة وباعة الخبز

أحب المقاومة ورايات النصر
ومعارك التحرير
ولكننى أحب ارتاح للهزائم أكثر.
بل مذ كنت عاملاً صغيراً فى إحدى
ورشات البناء
كنت أسند رأسى فى لحظات القيلولة
على الخرائط ومواد البناء
وأفكر بالأطلال
واليوم الذى يمر، ولا أحقد فيه على
شعب، أو حزب، أو طائفة، أو
زعيم، أو خطيب، أو صحافي
أو شاعر، أو مذيع، أو سائق، أو
راكب، أو شارع، أو نافذة، أو
عصفور، أو زهرة، أو سحابة فى هذه
الامة، لا اعتبره يوماً من عمرى، أو
يخصنى من قريب أو بعيد.
ولذلك لأن لا أعرف:
هل أنا مشروع كاتب؟
أم مشروع خائن

حزن فى ضوء القمر

أيها الربيع المقبل من عينيها
أيها الكنارى المسافر فى ضوء القمر
خزنى إليها

العارية القذرة
تندفع فى نهر من السوق
وسحابة من العيون الزرق الحزينة
تحقق بى
بالتاريخ الرابض على شفتي.
يا نظرات الحزن الطويلة
يا بقع الدم الصغيرة أفيقي
إننى أراك هنا
على البيارق المنكسة
وفى ثنيات الثياب الحريرية
وأنا أسير كالرعد الأشقر فى الزحام
تحت سمانك الصافية
أمضى باكياً يا وطني
أين السفن المعبأة بالتبغ والسيوف
والجارية التى فتحت مملكة بعينها
النجلاوين
كامراتين دافنتين
كليلة طويلة على صدر أنثى أنت
يا وطني
إننى هنا شبح غريب مجهول
تحت أظافرى العطرية
يقبع مجدك الطاعن فى السن
فى عيون الأطفال
تسرى دقات قلبك الخائر
لن تلتقى عيوننا بعد الآن

والجواسيس
ونحن نعدو كالخيول الوحشية
على صفحات التاريخ
نبكى ونرتجف
وخلف أقدامنا المعقوفة
تمضى الرياح والنسابل
البرتقالية..
وأفترقنا
وفى عينيك الباردتين
تنوح عاصفة من النجوم المبرولة
أيتها العشيقة المتغضنة
ذات الجسد المغطى بالسعال والجواهر
أنت لي
هذا الحنين لك يا حقودة!
قبل الرحيل بلحظات
ضاجعت امرأة وكتبت قصيدة
عن الليل والخريف والأمم المقهورة
وتحت شمس الظهرية الصفراء
كنت أسند رأسى على ضلغات النوافذ
وأترك الدمعة
تبرق كالصباح كامرأة عارية
فأنا على علاقة قديمة بالحزن
والعبودية
وقرب الغيوم الصامتة البعيدة
كانت تلوح لى مئات الصدور

لقد أنشدتك ما فيه الكفاية

سأظل عليك كالقرنفلة الحمراء البعيدة

كالسحابة التي لا وطن لها

وداعاً أيتها الصفحات أيها الليل

أيتها الشبابيك الأرجوانية

انصبوا مشنقتي عالية عند الغروب

عندما يكون قلبي هادئاً كالصمامة

جميلاً كوردة زرقاء على رابية

أود أن أموت ملطخاً

وعيناي مليتان بالدموع

لترتفع إلى الأعناق ولو مرة في العمر

فإنني مليئٌ بالحروف والعناوين

الدائمة

في طفولتي

كنت أحلم بجلباب مخطط بالذهب

وجواد ينهب بي الكروم والتلال

الحجرية

أما الآن

وأنا أتسكع تحت نور المصابيح

أنتقل كالعواهر من شارع إلى شارع

أشتهي جريمة واسعة

وسفينة بيضاء، تقلني بين نهديها

المالحين

إلى بلاد بعيدة،

حيث في كل خطوة حانة وشجرة

خضراء،

وفتاة خلاسية

تسهر وحيدة مع نهدها العطشان.

جنازة النسرين

أظنها من الوطن

هذه السحابة المقبلة كعينين مسيحيتين.

أظنها من دمشق

هذه العظمة المقرونة الحواجب

هذه العيون الأكثر صفاء

من نيران زرقاء بين السفن

أيها الحزن... يا سفيى الطويل المجدد

الرصيف الحامل طفله الأشقر

يسأل عن وردة أو أسير،

والكلمات الحرة تكتسحنى كطاعون

لا امرأة لى ولا عقيدة

لا مقهى ولا شتاء

ضمنى بقوة يا لبنان

أحبك أكثر من التبغ والحدائق

أكثر من جندي عارى الفخذين

يشعل لفاقته بين الأنقاض

إن ملايين السنين الدموية

تقف ذليلة أمام الحانات

كجيوش حزينة تحلس القرفصاء

ثمانية شهور

وأنا ألمس تجاعيد الأرض والليل

أسمع رنين المركبة الذليلة

والثلج يتراكم على معطفي وحواجبي

فالتراب حزين، والألم يومض

كالنسر

لا نجوم فوق التلال

التتاؤب هو مركبتي المظلمة،

وترسى الصغيرة

والأحلام، كنيستي وشارعي

بها أستلقى على الملكات والجواري

وأسير حزيناً في أواخر الليل

والسنة تمشي في حياض

والسنة تمشي في حياض

حريق الكلمات

سئمتك أيها الشعر، أيها الجيفة الخالدة

لبان يحترق

يثب كفرس جريحة عند مدخل

الصحراء

وأنا أبحث عن فتاة سمينه

أحتك بها في الحافلة

عن رجل عربي الملامح، أصرعه

في مكان ما

بيلادي تنهار

ترتجف عارية كأنني الشبل

وأنا أبحث عن ركن منعزل

وقروية يائسة، أغرب بها

يا رية الشعر

أيتها الداخلة إلى قلبي كطعنة السكين

عندما أفكر، بأنني اتغزل بفتاة

مجهولة

بيلاد خرساء

تأكل وتضاجع من أذنيها

أستطيع أن أضحك، حتى يسيل الدم

من شفتي

أنا الزهرة المحاربة،

والنسر الذي يضرب فريسته

بلا شفقة.

أيها العرب، يا جبلاً من الطحين

واللذة

يا حقول الرضاص الأعمى

تريدون قصيدة عن فلسطين،

عن الفتح والدماء؟

أنا رجل غريب لى نهدان من المطر

وفي عيني البلديتين

أربعة شعوب جريحة، تبحث

عن موتاهما

كنت جائعاً

وأسمع موسيقى حزينة

وأتصلب في فراشي كدودة القز



لبنان.. يا امرأة بيضاء تحت المياه
يا جبلاً من التهود والأظافر
إصرخ أيها الأبكم
وارفع ذراعك عالياً
حتى ينفجر الأبط، واتبعني
أنا السفينة الفارغة
والريح المسقوفة بالأجراس
على وجوه الأمهات والسبايا
على رفات القوافى والأوزان
سأطلق نوافير العسل
سأكتب عن شجرة أو حذاء
عن وردة أو غلام
إرحل أيها الشقاء
أيها الطفل الأحذب الجميل
أصابعي طويلة كالإبر
وعيناي فارسان جريحان
لا أشعار بعد اليوم
إذا صرعوك يا لبنان
وانتهت ليالي الشعر والتسكع
سأطلق الرصاص على حنجرتي.

سرير تحت المطر

الحب خطوات حزينة فى القلب
والضجر خريف بين النهدين

عندما اندلعت الشرارة الأولى.
أيتها الصحراء.. إنك تكذبين
لن هذه القبضة الأرجوانية
والزهة المضمومة تحت الجسر،
لن هذه القبور المنكسة تحت النجوم،
هذه الرمال التي تعطينا
فى كل عام سجنأ أو قصيدة؟
عاد البارحة ذلك البطل الرقيق
الشفقتين
ترافقه الريح والمدافع الحزينة
ومهمازه الطويل، يلمع كخنجرين
عاريين
أعطوه شيخأ أو ساقطه
أعطوه هذه النجوم والرمال اليهودية.
هنا...
فى منتصف الجبين
حيث مئات الكلمات تحتضر
أريد رصاصة الخلاص
يا إخوتي
لقد نسيت حتى ملامحك
أيتها العيون المثيرة للشهوة
أيها الله..

أربع قارات جريحة بين نهدي
كنت أفكر بأننى سأكتسح العالم
بعينى الزرقاوين، ونظراتى الشاعرية

أيتها الطفلة التي تقرع أجراس

الحبر فى قلبى

من نافذة المقهى ألمح عينيك الجميلتين

من خلال النسيم البارد

اتحسس قبلاتك الأكثر صعوبة

من الصخر

ظالم أنت يا حبيبى

وعيناك سريران تحت المطر

ترفق بى أيها الإله الكستانى الشعر

ضعنى أغنية فى قلبك

ونسراً حول نهديك

دعنى أرى حبك الصغير

يصدح فى الفراش

أنا الشريد ذو الأصابع المحرقة

والعيون الأكثر بلادة من المستنقع

لا تلمنى إذا رأيتنى صامتاً وحزيناً

فإننى أهواك أيها الصنم الصغير

أهوى شعرك، وثيابك، ورائحة

يديك الذهبيتين

كن غاضباً أو سعيداً يا حبيبى

كن شهيداً أو فاتراً فإننى أهواك

يا صنوبرة حزينة فى دمي

من خلال عينيك السعيدتين

أرى قريتي، وخطواتى الكثيرة

بين الحقول

أرى سريرى الفارغ

وشعري الأشقر متهدلاً على المنضدة

كن شفوفاً بى أيها الملاك الوردى

الصغير

سأرحل بعد قليل، وحيداً ضائعاً

وخطواتى الكثيرة

تلتفت نحو السماء وتبكي.

الحصار

دموعي زرقاء

من كثرة ما نظرت إلي السماء

وبكيت

دموعي صفراء

من طول ما جلست بالسنابل الذهبية

وبكيت

فليذهب القادة إلي الحروب

والعشاق إلي الغابات

والعلماء إلي المختبرات

أما أنا فسأبحث عن مسبحة

وكرسي عتيق

لأعود كما كنت

حاجبا قديما علي باب الحزن

مادامت كل الكتب والداستير والأديان

تؤكد أنني لن أموت

إلا - أتعاء، أو سجيناً.

من منظور اقتصادي وبعيدا عن نظرية المؤامرة

أول دراسة علمية عن:

الإنتاج السينمائي المصري الأوروبى المشترك

أمل الجمل

الإنتاج السينمائي المصري الأجنبي المشترك كان ولا يزال من القضايا الشائكة. محل الخلاف الدائم بين عدد كبير من السينمائيين والنقاد .. البعض يدينه ويشكك فى نواياه وتوجهاته الإعلامية. البعض الآخر يُرحب به .. لكن تقييم هذه التجربة يحتاج الى التدقيق. والتروى فى الأحكام بعيدا عن المبالغة .. فالتجربة شأنها شأن التجارب كلها. لها ايجابياتها وسلبياتها .. نقاط قوة. ومكامن ضعف .. وتحتاج الى مناقشة هادئة.

صدرت مؤخرأ دراسة علمية من منظور إقتصادي بعنوان : المشاركة والتعاون المصري الأوروبى فى مجال صناعة السينما للباحثة د. دينا جلال - مدرس بجامعة قناة السويس - والبحث صادر عن مركز دراسات وبحوث الدول النامية . كلية الإقتصاد والعلوم

السياسية. قام البحث على أربعة محاور :

أولها مدخل عام للمكون الثقافي فى الطرح الأوروبى وأبعاده الإقتصادية والسياسية . وفيه ترى الباحثة أن صناعة السينما الأمريكية أدت مهمتها الترويجية فى خدمة المصالح التجارية والإقتصادية والثقافية الأمريكية خلال أكثر من خمسين عاماً مما يُفسر غياب الدور الثقافى - المرتبط بدعم الفنون والثقافات - من برنامج المساعدات الأمريكية . فى حين يهتم الجانب الأوروبى بالمكون الثقافى ليس فقط بين شمال وجنوب المتوسط . لكن أيضاً فى الحوار الأوروبى الأمريكى المعاصر . فيصل أحياناً لحد الصراع . خاصة بين أمريكا والمجموعة الفرنكوفونية وتتصدرها فرنسا . بشأن الإستثناء الثقافى .

و" الإستثناء الثقافى " تعبير فرنسى يقضى بضرورة استثناء المنتجات الثقافية وعلى رأسها السينما من شروط تحرير التجارة حفاظاً على الخصوصية الثقافية للشعوب . وحماية الأفلام المحلية من السيطرة الهوليودية . وذلك فى إطار التصدى لدعوة تحرير التجارة الدولية للسلع الثقافية . وهى الدعوة التى تطالب بإزالة التشريعات القانونية الخاصة بالقيود والضرائب المفروضة على الأفلام الأمريكية . وبإلغاء أى دعم على تلك المنتجات . مع ملاحظة اعتماد صناعة السينما وإنتاج الأفلام فى أوروبا على التمويل المؤسسى من صناديق دعم السينما التى تقوم بدورها فى دعم الآخرين وخاصة أفريقيا وجنوب المتوسط متضمناً مصر .

فى المحور الثانى طرحت الباحثة أهم المؤشرات الإقتصادية والإجتماعية المرتبطة بدعم الجانب الأوروبى لصناعة السينما فى مصر . ومنها الاتجاه من دعم ومشاركة المبدع الفرد إلى المؤسسات الرسمية واستقطاب أطراف محلية وأوروبية جديدة ومتنوعة . لم يتوقف الشريك الأوروبى عند تمويل إنتاج الفيلم الروائى أو التسجيلى . لكن أمتد التعاون إلى البنية التحتية للصناعة مثل التدريب على كتابة السيناريو وتمهيد المهارات التقنية . وتدريب الكوادر الفنية خلف الكاميرا والمساهمة فى حماية التراث السينمائى بعمليات الترميم - أفلام المخرج صلاح أبو سيف - والتعاون من أجل استعادة المفقود منها خارج الحدود . ودعم المهرجانات المحلية ذات الصفة الدولية مثل مهرجان القاهرة السينمائى . ويعد أن كان الطرف الأوروبى يعنى فقط فرنسا

ظهرت أطراف إسبانية وإيطالية .

تأتى أهمية التعاون المشترك فى إتاحة الفرصة أمام الطرف المصرى للحصول على حصة فى أسواق العرض والتوزيع الأوروبية سواء فى دور العرض . أو فى القنوات الفضائية .. والمساعدة على تواجد أفلام الإنتاج المشترك الأوروبى متوسطى فى المهرجانات الدولية. والمتخصصة .. فى المقابل يحصل الطرف الأوروبى على حصة من السوق المصرية لتحقيق أهدافه الاقتصادية والثقافية المرتبطة بالدعم . وأهمها تأكيد التعددية ومقاومة الهيمنة الهوليوودية. ودعم مبدأ الاستثناء الثقافى للمنتجات الفنية والثقافية عامة .. وإعادة توزيع سوق الفيلم الأجنبى فى مصر فى ظل عدم التكافؤ بين الفيلم الأمريكى المهيمن والأوروبى شبه الغائب .

نفت الدراسة قيام الإنتاج السينمائى المشترك بسحب الفرص البديلة للإنتاج السينمائى العربى. إذ يصعب الحديث عن رؤية أو تصور لإنتاج سينمائى عربى مشترك فى الأجل القصير. رغم وجود مقومات صناعة سينما فى مصر وصناعات مهرة على مستوى عالى فى المنطقة العربية. والسبب غياب القدرة على توظيف الطاقات البشرية العربية فى اتجاه تنشيط السوق العربية . واعتبرت الدراسة أن التعاون والمشاركة السينمائية مع أوروبا تقع فى منطقة وسطى ما بين "ملاء فراغ ما " والإضافة النوعية للقدرة والإمكانات المتاحة . خاصة فى ظل أزمة السينما فى مصر المتمثلة فى نقص التمويل . وتراجع دور الدولة فى الدعم المباشر. وتراجع الإنتاج الكمى السنوى من الأفلام الروائية الطويلة وتراجع الطلب الخارجى على الفيلم المصرى . والفجوة بين عدد الشاشات المتاحة والمتزايدة وعدد الأفلام المحلية .

أكدت الدراسة أن الإنتاج المشترك كان الملاذ والملجأ للمبدع الفرد . ولولاه ما خرجت العديد من الأفلام الإنتاج المشترك .. فإذا أمكن على نحو أو آخر إنتاج أفلام يوسف شاهين بعيداً عن التعاون المشترك. لكن من المستحيل تماماً إنتاج أفلام يسرى نصرالله - أسماء البكرى - عاطف حتاتة . فهى تتمتع بقدر من الحرية لم يعد متوفراً فى الأفلام المصرية الخالصة. ويقدر من التقنية يتجاوز إمكانات الاستوديوهات والمعامل المصرية .

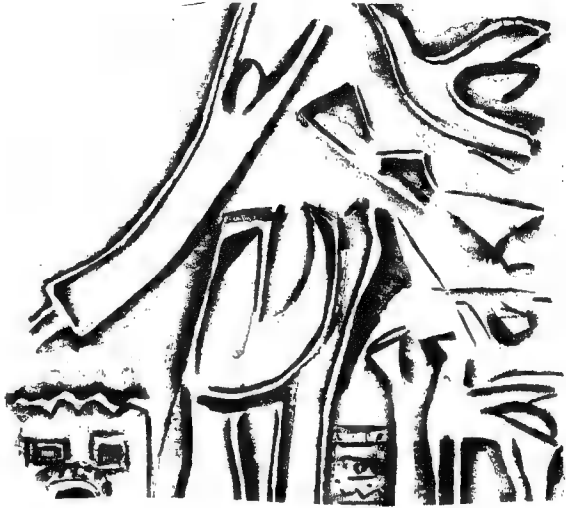


تطرت الباحثة للانتقادات التي تُؤخذ على الإنتاج المشترك أنه مغلق على مجموعة بعينها لها مقومات خاصة مكنتها من طرق أبواب المنتج الأوروبي وفتح قنوات التعامل معه واستيعاب آليات هذا التعاون وفك شفرته .. كما أن البعض يرى أن أفلام الإنتاج المشترك أقل نجاحاً بمعايير الشباك التجارية . لكن الممول الأوروبي يُقيمها في ضوء مضمونها ومحتواها الثقافي والفنى .. وهى تضم أنواعاً تقع تحت مسميات سينما المؤلف . سينما الرؤية الذاتية أو سينما الفن . وتُطرح بوصفها الفيلم النخبوى فى مواجهة الفيلم الجماهيرى . أوسينما المثقفين فى مواجهة السينما الشعبية .

فى المقابل يرى البعض أنه لولا الإنتاج المشترك ما شاهدت أوروبا ما أُتيح لها من أفلام مصرية مشتركة معاصرة . كما أن المساهمات المشتركة تعتبر من أهم ركائز الاشتراك فى المهرجانات الدولية الكبرى مثل مهرجان " كان " وخاصة خلال السنوات العشر الأخيرة . عُرض فى مهرجان " كان " ٢٠٠٤ فيلمين إنتاج مشترك مع الطرف الأوروبى لكل من يوسف شاهين ويسرى نصرالله .

البعض الآخر يتهم الإنتاج المشترك ويتطرف فى أفكاره إلى حد الاعتقاد فى نظرية المؤامرة .. أو يصفها بأنها أفلام تبيع الفلكلور أو تصدر التخلف .. لكن المؤيدين والمستفيدين يردون بأنهم يتمتعون بهامش من حرية التعبير فى أفلامهم المشتركة . مع الإقرار بهامش من التنازلات . يفرضها الواقع العملى كجزء من مضمون أى إنجاز جماعى وكشرط لخروجه للنور أياً كان مصدر التمويل .. وتُشير خبرات الواقع العملى إلى عدم خلو أى صناعة سينمائية - مهما بدت شروطها مستقلة - من التقديرات غير الفنية التى تفرضها اعتبارات الإنتاج والتسويق والتكنولوجيا والإمكانات الفنية والحسابات المجتمعية والسياسية. أياً كان مصدر التمويل أنظمة سياسية . قطاع خاص محلى . موزع خارجى . مؤسسة رسمية . أو إنتاج مشترك .

لكن يُؤخذ على الدراسة أنها تحدثت عن هامش من التنازلات يُقدمها مخرجى الإنتاج المشترك دون أن تذكر نوعية هذه التنازلات ومقدارها ومن هم السينمائيين الذين قدموا هذا الهامش من التنازلات خاصة أن المقابلات التى أجرتها الباحثة مع



المخرجين السينمائيين قليلة جداً . فقط مع مخرجة.روائية وثلاثة تسجيليين .
اختتمت الدراسة بعدد من التناقضات منها تراجع دور الدولة في الدعم المباشر
لصناعة السينما مقابل تزايد الدعم المؤسسي الأوروبي لتلك الصناعة في مصر
وبلاد المتوسط وأفريقيا .. وغياب التعاون المشترك العربي يقابله تعاون عربي "عبر
متوسطى " . في إطار منظومة إقليمية أكثر اتساعاً في أطرافها " البحرمتوسطية "
بفعل المشاركة مع الطرف الأوروبي مثلما حدث في مشروع نساء رائدات الذي ضم
جنسيات عربية مختلفة من مصر ولبنان تونس المغرب الجزائر .

الطيور المهاجرة وقصص أخرى

إيمان عبد المؤمن

إذا كان للمثقف دوره المؤثر فى مد الجسور، والتعرف والتعريف بتراث الآخر، انطلاقاً من رغبته الأكيدة فى معرفة الآخر والتواصل معه خصوصاً إذا ما عاش معه فترات تاريخية طويلة تحت مظلة واحدة .. كان فيها اندماج، وتنافر أحياناً .. تصارع، وتسامح وتصالح أحياناً أخرى، الا وهى مظلة الحضارة الإسلامية، وإذا ما كان هذا الآخر قريباً منا .. لصيقاً بنا .. لا تصارع أو تصادم منافع فيما بيننا بل الهموم واحدة .. والطموحات قريبة .. كانت هذه الإطلالة على بعض من نماذج القصة التركية القصيرة فى العصر الجمهورى فى كتاب يقع فى ٣٢٠ صفحة، ضمن إصدارات سلسلة أفاق عالمية - الهيئة العامة لقصور الثقافة تحت عنوان (الطيور المهاجرة) وهى ترجمة عن اللغة التركية الحديثة والمعاصرة مباشرة للدكتور .. الصفصافى أحمد المرسى القطورى وهو حاصل على الدكتوراه فى اللغة والأدب التركى من جامعة استانبول وحاصل على الجائزة الأولى فى ترجمة الأعمال الأدبية والقصة التركية القصيرة من رابطة الأدب الإسلامى العالمية فى ٢٠٠٢ وهو صاحب أول معجم فى العالم من التركية

الحديثة إلى اللغة العربية، وقد عمل في عدد من الجامعات العربية وفي جامعة صوفيا ببلغاريا ويعمل حالياً أستاذاً للغات الشرقية وأدائها بجامعة عين شمس. ليكشف لنا الكتاب أن (فن القصة القصيرة) كنوع أدبي - بالمفهوم الغربي الحديث - لم ينسب في تركيا إلا قبيل نهاية القرن التاسع عشر، وبدايات القرن العشرين، ويعتبر أحمد مدحت أفندى (١٨٤٤-١٩١٣) مؤسس القصة الحديثة في الأدب التركي، والذي أورد أفكاره التنويرية في مجموعته (أقاصيص تربية) التي شكلت معبراً بين النكتة الفولكلورية وحكايات الحيوان نحو القصة الأوربية المبكرة، ثم تابع منهجه في التنوير في سلسلة (أقاصيص مرحلة) وتطور إنتاجه المبكر تحت تأثير الكلاسيكية الفرنسية حتى وصل إلى الواقعية التنويرية وتجاوزها، والتي خطا بها كل من سامى باشا زادة سزائى (١٨٦٠ - ١٩٣٦) ونابى زاده أكرم (١٨٦٢ - ١٩٣٢) إلى الواقعية النقدية.

ويذكر الكاتب أنه من خلال النقد الأدبي والتراجم، تعرف المثقف التركي على أمهات الأعمال الأدبية لكبار كتاب الأدب الغربي الحديث بصفة عامة، والفرنسى بصفة خاصة، مما ساعد على إنماء الذوق الفني للكاتب والمتلقى معاً، كما تعمقت المفاهيم الفنية والفكرية للكتاب الذين اتخذوا - في غالبيتهم - مواقف معادية لتسلط الإقطاع.. واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان.

ويشير الكاتب إلى تجليات القصة النفسية التي جاءت على يدى خالد ضيا أوشاقلئى غيل (١٨٦٦ - ١٩٤٥)، الذى وضع الناقد الأكاديمى أ.كونزاد أعماله ضمن الأدب الواقعى العالمى وفي مصاف ستانندال وبلزك وديكنز وجوجول وتورجنيف ودستويفسكى وتولستوى وتشيفخوف، لاستلهامه الأسس النقدية لروائع الأدب الفرنسى والأدبى الإسكندنافى والروسى، بالإضافة إلى قدرته الإبداعية القصصية التى لا تنازع وامتلاكه لتجربة حياتية غنية، تغلفت إلى الروح الإنسانية، أظهرت حساسية مفرطة تجاه التفاصيل الواقعية والهموم اليومية، كما تابعت خالدة أديب أديوار (١٨٨٤ - ١٩٦٤) التحليل النفسى فى قصصها القصيرة، وكانت هى ويعقوب قدرى قره عثمان أوغلو القاهرى المولد (١٨٨٩/٢/٢٧) من أوائل من اتجهوا فى

أعمالهم القصصية القصيرة إلى أعماق المواطن التركي في محيط الأناضول وقراه. وينتقل بنا الكاتب إلى صراع (الفكر القومي) مع الأفكار والأيدولوجيات المتضادة خلال الفترة الممتدة من إعلان الدستور العثماني عام ١٩٠٨ إلى إعلان الجمهورية في عام ١٩٢٣، والتي كانت الغلبة فيها للادب القومي كنهج في القصة، والذي انتقل من الواقعية إلى الواقعية النقدية، التي تجسد التفاعل بين قوى الشعب التركي المناضل تحت تأثير الواقع المادي المتردى بعد الحرب العالمية الأولى ومعاناة حرب الاستقلال، ثم تعمقت التيارات القومية الواقعية عامة، والواقعية النقدية خاصة، التي جسدت الصراع بين الشرق والغرب. في النتائج القصصية لهذه الفترة المتزامنة مع احتدام الصراع بين الدول الإمبريالية على إعادة تقسيم العالم. وخاصة ممتلكات الدولة العثمانية، وعشية الأزمة العامة للاقتصاد العالمي.

ويشير الكاتب إلى ظهور عمر سيف الدين (١٨٨٤ - ١٩٢٠) كأبرز ممثلي الاتجاه الواقعي في تلك الفترة، والذي مزج في أعماله بين الوطنية والنزعة الإنسانية العامة، ثم مجى رفیق خالد قارای (١٨٨٨ - ١٩٦٥) أبرز الممثلين البارعين للواقعية النقدية، الذي وظف قدرته الإبداعية ضد النظام الحاكم وأصدر أعمالاً نقدية واقعية تمثل تطوراً مرحلياً.

ويحدثنا الكاتب عن رفیق خالد قارای، الذي عرف القارئ التركي - لأول مرة - بقضايا الفلاح في (الحمار الأعبي) وقضايا العمال في (ثمن الصمت) والاعتزاز الوطني للشباب التركي في مواجهة الدور التخريبي لجنود البحرية الأمريكية في الموانئ التركية في (مواجهة القوة)، في الوقت الذي ظهرت فيه طبقة من الأدباء الموظفين، الذين لا هم لهم إلا إرضاء رجال النظام، الذين استطاعوا الإيحاء للمثقفين أكثر من غيرهم بالسعى نحو تخليص المجتمع من سطوة رجال الدين واحلال الفكر العلمي والعلماني والعقلاني كوسيلة إلى خلق المجتمع الثوري الجديد، وفي المقابل على التقيض تمسك القزوين وسكان المراكز والقصبات بمعتقداتهم الدينية الصوفية. وفي هذا الجو المتصارع، ظهر صوت (ناظم حكمت) الجديد (١٩٠٢ - ١٩٦٣)، الذي بشر بالثورة ضد الجمود والاستغلال، لإيمانه الراسخ بالعدالة الاجتماعية والإيحاء



© 1970
Mamcha HSOI MEI

الإنساني، فاصطدم بالسيرة العسكرية، التي استطاعت خنق صوته داخل السجن لأكثر من ربع قرن.

وأتسعت حلقة القصاصين الواقعيين، والواقعيين النقديين على وجه الخصوص، والتي تفرعت في داخلها إلى تيارات مختلفة، فكان رشاد نوري كونه تكين (١٨٨٩ - ١٩٥٦) الذي يقيم موضوعاته على عنصرى الحب والشفقة اللذين يهدفان إلى صلاح الإنسان ذاته، ثم فخرى جلال الدين (١٨٩٥) الذي جسّد الهجائية اللاذعة في (طلاق ثلاثة) و(الطاعون).

ويتحرك الوضع الثقافي بعض الشيء بصدور مجلة الوجود (وارلق) سنة ١٩٣٠م = ١٣٤٩هـ - مازالت تصدر - والتي استطاعت مع تيار المشاعر السبعة خلق مدرسة (الأدب الاجتماعي) التي أثرت في كل التيارات الأدبية في تركيا.

واشتدت وطأة ديكتاتورية الحزب الواحد.. حزب الشعب الجمهوري، فانغمس البعض في التصوير التأملي الذي لا يحمل همأ.. واتجه آخرون بالظروف الحياتية وجهة مثالية، وعضدوا الاتجاهات البورجوازية.. وهاجرت طائفة أخرى حفاظاً على إنسانيتها وعلى عقائدها، في ذات الوقت ظهر صمد آغا أوغلو (١٩٠٩) الذي وقع تحت التأثير القوي لدستويفسكى وصباح الدين على (١٩٠٦ - ١٩٤٨) ب (الطاحونة) لتجسيد هذه الفترة المضطربة.

وينقل بنا الكاتب إلى (الواقعية الاشتراكية) حيث خلقت أقاصيص (ناظم حكمت)، وأعمال (صباح الدين على) نمطاً قصصياً جديداً في الأدب التركي وهو (الواقعية الاشتراكية) الذي يسعى إلى تغيير المجتمع، وخلق الظروف الملائمة لتطور منسجم للإنسان، من خلال البطل الإيجابي عندهم وهو الشعب، وقد جمعت (الواقعية الاشتراكية) في داخلها مكاسب الاتجاهات الديمقراطية، حتى ذلك الوقت، في كل فروع الأدب التركي، فطورتها، وأثرتها بقيم فكرية جديدة.

ويتحدث الكاتب عن (الفاشية)، التي أرادت إرهاب الأقسام الشابة.. الحرة، فحكمت على (ناظم حكمت) الذي نشر أعمالاً يندد فيها بالاحتلال ويحض على الكفاح، بالسجن لمدة متداخلة، واعتقلت الشاعر والرسام عز الدين داينمو، والكاتب أورخان

كمال، وحكمت عليهما بأحكام مختلفة.

ويموت مصطفى كمال أتاتورك سنة ١٩٣٨، يبدأ عهد جديد من (الديكتاتورية والفاشية) بعد تولى عصمت إيتونو الحكم.. فالأحزاب ملغاة.. والأفواه مكفمة.. فلا صحافة حرة.. بل رقابة متسلطة.. سيطرة الحزب الواحد والزعيم الواحد.

ويؤكد الكاتب أنه خلال سنة ١٩٤٥م = ١٣٦٥هـ وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، بدت فى الأفق إرهابات التعددية الحزبية، وفى سنة ١٩٤٦ انتقل النقاش من السياسة والديمقراطية إلى الدين والعلمانية، وإعادة تناولهما وتوجهاتهما.

كما يشير الكاتب إلى ظهور ما يمكن أن يعتبر تمزقاً أو تناقضاً أو إفلاساً وهو نشوء أحزاب عمالية.. فلاحية.. إسلامية، نقابات عمال.. تحل .. وتعود فتظهر، صدور مجلات تقدمية.. ومحافظة، إضافة إلى تدعيم موقف الإصدارات الدينية بعد وصول الحزب الديمقراطي إلى الحكم من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٠ أدى إلى ظهور نتاج قصصى فيما بين ١٩٤٣، ١٩٤٩ يعكس هذه الأزمات النفسية.. والضائقة المالية.. والمرضية.. فطالعنا (صباح الدين على) فى (الدنيا الجديدة) بشخصياته المستمدة من قاع المجتمع الأناضولى بمسئولية الفنان تجاه علاج مشكلات وطنه؛ وأعقبه خالى قارناص باليفجى (١٨٨٦-١٩٧٣م) بمجموعته (مرحبا البحر الأبيض) وقد عقد فيها مقارنة طيبة بين إنسان البحر.. وإنسان البر، بأسلوب يعبر عن المعرفة والذوق والشفافية والتألق الروحي، كما انخرط سعيد فائق فى كتابه القصصى (رجل لا لزوم له) فى الحياة اليومية بكل مأسياها وأماليها وتطلعاتها وفى الوقت الذى يعرب فيه (أوقتاي إقبال) (١٩٢٣) من المشاكل الحياتية، دون أن يشير إلى مخرج فى (الكنز البيزنطى)، فإننا نرى أوخان كمال (١٩١٤ - ١٩٧٠) فى (معركة الخبز) و(ولدنا) يهدف إلى الوصول إلى تشريح لقضايا المجتمع وأحداثه وفى قصته الرائعة (النوم) جسد حياة المصنع والورشة وأثرهما فى المجتمع.

ويشير الكاتب إلى أنه شهدت السنوات الأخيرة، من النصف الأول من القرن العشرين، بزوغ نوع قصصى جديد هو (القصص الهزلية الساخرة) ووصل هذا الطراز من الكتابة على يدى الساخر الباكي ، الضاحك.. المضحك عزيز نسين

(١٩١٥ - ١٩٩٥) فى مجموعات المتتالية، التى فاقت فى إعداده طبعاتها وتأثيراتها كل تصور.

وتوالت نجاحات هذا النوع الأدبى .. خلال سنوات حكم الحزب الديمقراطى (١٩٥٠ - ١٩٦٠) وخلال هذه الفترة أيضاً تناول الإنتاج القصصى جرائم الفقر والعشوائيات فى القرى النائية والأحياء الشعبية، مما مهد لظهور تيار جديد فى الأدب التركى عامة، والقصة القصيرة بشكل خاص، ألا وهو.. (التيار القروى)، الذى يعد خلاصة التجارب الاجتماعية ورابطة بين التراث الشعبى الحى، والفولكلور القديم.. ومزج بين لغة الشعب ومشاعره وواقعه، فى إطار من الحميمية، والحميمية، التى تعتمد على الواقعية والصدق والموضوعية فى تناول والمشاهدة الحية، وقاد هذا التيار القاص التقدّمى محمود مقال (١٩٣٣) بعد أن نشر روايته الشهيرة (قريتنا) التى ترجمت إلى ما يزيد على خمسين لغة.

مع انتصار الحرية السياسية، استهدف الكتاب أمثال يشار كمال (١٩٢٣م - ١٣٤٢هـ) بمجموعة قصصه الطويلة (الصفحة) و(الرضيع) و(الدكانجى) و(حكاية قذرة)، وابلخان طاروس فى (حجر النملة) وبن اورخان كمال فى (بنت الغسالة) إنسان الأناضول بكل مناطقه وإينما يكون.. فى الشرق أو فى الغرب أو فى جنوب شرق الأناضول.

كما يذكر الكاتب أن عام ١٩٧٠ شهد بعض التغيرات السياسية التى أدت إلى زيادة ملحوظة فى المجموعات القصصية الجديدة، وإعادة طبع بعض المجموعات لأصحاب الأسماء اللامعة، وزاد المجتمع من رصد الجوائز السنوية لمضمار القصة، كما دخل (الإسلاميون) مضمار السباق، وتناولوا فى أعمالهم الفكر الإسلامى والأبطال، والرموز، والنقوش الإسلامية.. وتعلقوا جميعاً حول نجيب فاضل قيصه كورك (١٩٠٥ - ١٩٨٣) ومن بعده تلاميذ آخرون.

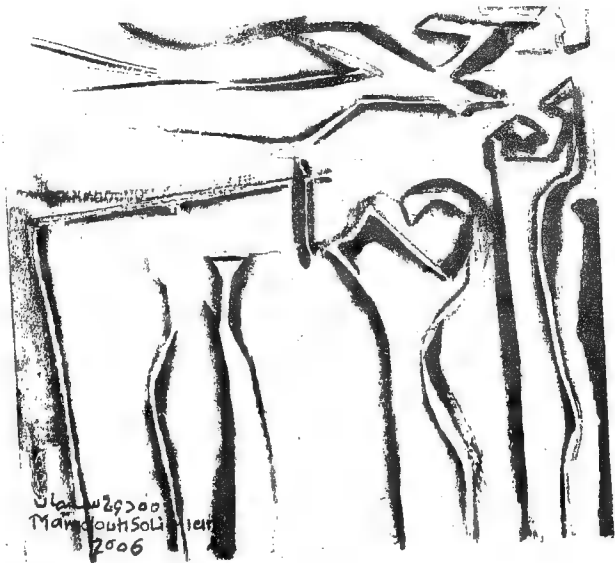
كما لم يكن (التجريديون) الذين ساروا على نفس درب التجريديين الغربيين بأقل مهارة عن سواهم، فها نحن نرى لىلى أربيل (١٩٣١) توالى إصدار أعمالها اعتباراً من ١٩٦١ ب (الحلاج) ١٩٦١م، و(فى الليل ١٩٦٩) و(امراة غريبة ١٩٧١) و(الحبيب

القديم) ١٩٧٧، ثم يعقبها فريد أدغو الذى جمع كل قصصه ونشرها سنة ١٩٩٣ ثم طومريس أويار (١٩٤١) صاحبة باع لا يستهان به فى إرساء مفهوم (التجريد) فى الفن القصصي.. و(نديم غورسيل) ١٩٥١ أحر التجريدين الكبار فى الأدب التركى المعاصر.

ثم يلقى الكاتب نظرة على (ما بعد الحدائة) فى القصة التركية المعاصرة باعتباره مازال مصطلحاً مبهماً فى الأدب التركى عامة، والقصة القصيرة خاصة، ومن هذا المنطلق لا نستطيع أن ندعى أن هناك تياراً أدبياً قصصياً يجد ما بعد الحدائة فى القصة أو الرواية أو الشعر التركى المعاصر، ويشير الكاتب إلى أمثلة من أنصار تيار (ما بعد الحدائة)، وهما (نال أورخان باموق) و(جودت بك وأولاده).

ونستعرض مع الكاتب (منتخباته)، التى كانت عاكسة للوضع السياسى والاجتماعى، والبيئة التى تنصهر فيها المشكلات الحياتية التى التقطتها حاسة القصاص وموهبته، فيتناول مع عمر سيف الدين (١٨٨٤-١٩٢٠=١٣٠٢ - ١٣٣٩هـ) فى عملين من أعماله الصدام بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية ونقد الذات الإسلامية التى تسعى إلى تحقيق المنافع الشخصية بالخرافة، ونرى (خالدة أديب اديوار) فى (الصبى همت) تمجد البطولة لدى أفراد الشعب، ونكشف عن عالم (سعيد فانق) فى (السماور) و(المنديل الحريرى) الثورى.. المفعم بالعاطفة، وننطلق إلى ريف الأناضول، الذى يراه (يشار كمال) تجسيدا لكل مشاكل الأناضول الكبير، فى عملى (الدكانجى) و(الطيور المهاجرة) لنرى رسداً لهذه الحياة وصوراً للاستغلال ونرى أيضاً نموذجاً لمعاناة المرأة القروية بعد هجرة زوجها.

ورغبة من الكاتب فى أن يساعد على رسم البسمة، بل فى إطلاق الفهقهة، التى تسقط بعدها الدمعة على حد قوله، أفاض قليلاً فى نماذج (عزيز نسين) الساخر من كل فئات المجتمع التركى ومن نفسه أيضاً، محاولاً علاج أصعب المشاكل بالبسمة، فنراه عرى أسلوب الضمبط والربط فى (خدمة وطنية) وركز الانتباه على المطامع السياسية فى (مجنون على السطح) وتغنى بالحرية الحقيقية فى (القطة السعيدة)، وطمس معالم الذكاء الأمريكى فى (اليس فى بلدكم حمير..!!) وعرى الاحتكارات



الأسرية والعرقية والخبث التجارى فى (مدفأة الكيروسين) وأخيراً نضحك ونغضب
فى أن واحد مع (ناس ظرفاء).
ويعود بنا الكاتب إلى الريف التركى المعاصر فى (قطف الثمرة قبل أن تنضج)
ليعرض علينا (فقير بايقورت) زواج القاصرات رغم أنوفهن فى الريف التركى حتى
فى نهايات القرن العشرين.

آليات التشكيل في: «صمت الرمل»

خالد البلتاجي

-١-

إن المتن الحكائي عبارة عن مادة خام طبيعة في يد السارد، وقابلة لأن تصاغ بما لا حصر له ولا عدد من الأشكال التعبيرية وفقاً لرغبته وتمشياً والاستراتيجية المتبناه من قبله نحو المسرود له، الأمر الذي دفع كثير من المنظرين لأن يولوا هذه المسألة كبير عنايتهم واهتمامهم، محاولين الإحاطة بها من جميع جوانبها سواء من حيث علاقة السارد بالشخصيات أو العلاقات التي يقيمها بمتنه الحكائي، أو بمخاطبه.

أى أن العلاقة بين المتن والمبنى، أو بين القصة والخطاب محل إشكال ودراسة. ولقد عانى كتاب الرواية وعلى نحو الخصوص بعد نكسة الخامس من يونيه عام ١٩٦٧ من التفتت، إذ أدت تلك الهزيمة إلى نوع من التشتيت والتشويش وتداخل خطوط الرؤية لديهم جعلتهم يتبنون صيغاً سردية تتوازي في تداخلها وتشابكها مع تعقد خارطة الواقعين: المحلي والقومي، ولذا نتجت في الكتابات الإبداعية أعمال انمازت بالتشنج والتوتر في الوقائع المروية من قبل سارد كان - هو الآخر - واقعاً تحت تأثير ضغوط فكرية لم يكن منتظراً سوى إبداع أشكال كابوسية.

وقد لزم هذا التفتت من قبل المبدع أن يتعامل القارئ - هو الآخر - بشيء من التراكم، وأصبحنا بين ثالث: وعى مفتت لدى المبدع، ونص مفتت أو متراكم، وقارئ يتعامل مع النص بشيء من التراكم ووعى ذهنى حاضر.

- ٢ -

النهاية فى البداية / مبدأ الإحالة:

«لا يستطيع استيعاب ما حدث .. حاول الربط بين ما حدث بالأمس وما حدث أول ما جاء إلى هذه المدينة (ص ٥). فى صباح اليوم التالى لم يذهب إلى العمل، ظل ممدداً ويقظاً لم ينل القسط اللازم من النوم...» (ص ١٩٤).

هكذا تبدأ/ تنتهى رواية: «صمت الرمل» للكاتب المصرى: «محمد عبد السلام العمرى» ويحاول فى هذه السطور القليلة أن يشير إلى جملة عناصر البيئة السردية: أحداثاً، وأزمنة، وأمكنة، وشخصيات، وضمير السرد... إلخ.

فالأحداث تتراكم ويحاول السارد تفسير ما حدث. كما يحاول الربط بين ما حدث له، وما حدث أول ما جاء إلى هذه المدينة وليلة أمس، وبالتحديد تكون ليلة أمس حينئذ - هى الزمن الخارجى أو الزمن الإطار، وكأن الرواية جميعها كانت رهن هذه الليلة. أى إن الرواية تسير وفق مبدأ الإحالة والتعليق، حيث لا يخبرنا بما حدث له بالأمس إلا مع نهاية الرواية بعد ثلاثة عشر مشهداً، وتمتد هذه المشاهد فيما يقرب من المائتى صفحة أو بالكاد.

أى تسير الرواية وفق حركة دائرية تتعانق بالنهاية مكونة دائرة كبرى وثمة دوائر أخرى كثيرة تتولد مع كل مشهد من هذه المشاهد الثلاثة عشر. هكذا نجد تراكمية الأحداث/ الأزمنة/ الأمكنة مع المطلع الأول للرواية، الأمر الذى يجعلنا نتذوق براعة الاستهلال، إذ استطاع الكاتب أن يضعنا فى قلب الأحداث ويقدمها لنا دفعة واحدة. وإذا كانت هذه هى القصة/ المتن. فلقد تبقى - إذن - البحث فى كيفية تشكيل الخطاب بتعبير «تودروف».

وتتداعى أحداث الرواية - هذا إذا كان ثمة أحداث من الأصل بالمفهوم التقليدى

للحدث - وعبر بنية الصمت والياتة يطرح الكاتب كثيراً من تقنياته البنائية المختلفة ولعل أهمها: الحلم/ التداعي / التناص/ المنتاج العقلي/ الوصف.. إلخ. ومن الجدير بالذكر، هنا أن يصبح الصمت إحدى آليات السرد ومكوناً أساسياً من مكوناته فى تشكيل هذه الرواية، فمادة «الصمت» وردت فى النص الروائى أكثر من ثلاث وأربعين مرة فضلاً عن «صمت الرمل» عنوان الرواية. وكما هو واضح، أن «صمت الرمل» نحوياً إنما يقع مبتدأ، ومضافاً إليه، أى : لا يكون جملة مفيدة، فهو مبتدأ فى حاجة إلى خبر، ولعل قصد الكاتب أن يشير إلى أن ما حدث ليلة أمس (أى جملة أحداث الرواية) هو ذاته الخبر، وربما قصد الكاتب أن يلفت نظر القارئ إلى أن هذا الصمت هو ذاته الخبر، وحينئذ يجب أن نقرأ الرواية هكذا: «هذا صمت الرمل».. ويظل اسم الإشارة: (هذا) الواقع مبتدأ إشارة/ إحالة إلى مجهول لا يتضح إلا بقراءة النص ذاته. والنتيجة تصبح واحدة ففى كلا الأمرين يحيلنا الكاتب إلى النص.

١-٣

أما عن الصمت ذاته - بوصفه أحد مكونات السرد والياتة الأساسية كونه واقعاً مبتدأ لخبر محذوف أو خبراً لمبتدأ محذوف - فقد ورد فى النص السردى أكثر من ثلاث وأربعين مرة على نحو ما أشير إليه - وهذه المرات المتعددة لا يمكننا أن نقول إنها وردت فيها كلمة الصمت، ويصمت ، وصمتوا .. إلخ. - نجد أن هذا الصمت قد شمل جل آليات السرد من أحداث وشخصيات، وأمثلة، وأزمنة أو كلها..

فالصمت - فى ذاته - حدث ، وأن كان حدثاً بالسلب ، لكنه سيتحول إلى حدث إيجابى فى نهاية الأمر على نحو ما سنرى. أما عن صمت الشخصيات فلم يقتصر على شخصية بذاتها وإنما شمل جميع شخصيات الرواية بشكل فردى أو جمعى.. مثال قوله: «صمت الدكتور كلكتاوى - صمت قليلاً (الضمير هنا يعود على عصمت

الفار)، صمت ولم يستطع أن يتحمل (عبد الحميد راجح)، صمته جذب الانتباه إليه (د. رشدي)، ثم صممت (نورا)، وكذلك عمرو الشرنوبى - كان صمته مختلفاً فوراً لنا مرة صمت العاجز عن فعل أى شىء من نوعه، ففى الليلة التى هاجمت الشرطة منزله ومكتبه وعلى الرغم من هذا الهجوم لم يكن أمام عمرو غير الصمت التام. كما نجد صمت الساخر والمستهزى، حينما دخل مكتبة أحد مستضيفيه ووجدها (المكتبة) صورة هى الأخرى من صور تعميق العزلة الإنسانية وحلية تستكمل حلية الحضارة. وأمام هذه المشاهد وغيرها لم يكن أمام «عمرو» غير كونه «يغلى بصمته» أو بالأحرى يغلى بعجزه ورضوخه لما حدث ومازال يحدث. وتنتهى الرواية على لسان عمرو «بالصمت» إذ يشير إلى ذلك قائلاً: «فصمت رغم كل هذه المشاهدات وهذه الأحداث». كما نجد الصمت الجمعى لأكثر من فرد فيقول: «إنهما الآن صامتان واجمان». وأيضاً نجد قوله: «يا الله يا لهؤلاء الناس هادئون هكذا صامتون، مهذبون، يتحدثون بصمت يوافقون بصمت» وكأن الصمت - هنا - تسرب وتغلغل إلى هواجس الشخصيات، فسائر الشخصيات تعرضت للحظات صمت أى أنها عبرت بالصمت.

٢- ٣

كما نجد الصمت/ المكان أو سيطرة الصمت على فضاء الرواية أو أمكنتها، وتصبح الرواية مفعمة أجواؤها بالصمت الدال؛ ففى البداية نجد قوله: «ساد الصمت، مشغولاً بالتفكير، يناقش الراى من عدة أوجه» وكان السيادة هنا صارت للصمت وكأنه البطل، فضلاً عن سيطرته المكانية..

وكذلك نجد قوله: فيما كانت الطائرة تخفق بهم فى بحار الصمت متجهة إلى ديستراكو.. (ص ٦١)، وعندما يتحدث عن الزوجة التى ربما كان يتمنى أن يتزوجها (أخت أمانى) فيشير إلى هذه الزيجة التى لم تحدث فيقول: «حتى يفخر بها فى صمت الصحراء».. ثم يسيطر الصمت على أجواء الرواية، فيقول: «بدأ الصمت مخيماً»، ثم يأتى الصمت من الآلة ليسيطر أو يفرض على الأجواء فيقول: أعلن ميكرفون الإذاعة الخارجية «التزام الصمت»، فهو يتوجه إلى الجماعات بأسرها -

على حد سواء - أهل المكان أو الدخلاء عليه.

٣- ٣

أيضاً نجد الزمن الصامت، أو سيطرة الصمت على أزمنة الرواية. هذا إذا أخذنا في الاعتبار أن ثمة أزمنة متداخلة في الرواية، فمثلها يوجد فيها الزمن المرجع/ الزمن الإطار الذي يحكم القصة من البداية حتى النهاية. نجد أيضاً من الخطاب. أى : الأزمنة الداخلية تلك التي تتزايد وتتعدد وتتداعى حسبما يرى الراوى أمكنة جديدة أو شخصاً أو أحلاماً تتداعى حسب المونتاج العقلى أو الحلم.. إلخ.

أما نماذج الصمت على زمن الرواية والأزمنة الأخرى المتداعية. كما يسيطر الصمت على سائر المخلوقات الأخرى غير الإنسان في الرواية: فيقول الراوى عن الكلاب: «لا تفتأ تصمت حتى تواصل من جديد». ويجسد الصمت تجسيداً مخيفاً كى يضيف إلى فزعه وخوفه فزعاً وخوفاً جديدين، فيقول: «وبدا الصمت فحياً».

٤ - آليات الصمت وتشكيل بنية الرواية: ٤ - ١ الحلم

رأى القدماء أن الحلم صورة ترد عليهم من عالم ما فوق الطبيعة، وسائل إلهية فوق مستوى البشر، إلى أن جاء «أرسطو» بتفكيره العلمى فكان أول من أرسى وجهة النظر النفسانية فى دراسة الأحلام وأنها ليست رسائل إلهية، بل هى نشاط نفسى يصدر عن النائم بحسب الظروف التى يكون عليها فى نومه.

بينما يرى بعض العلماء أن الحلم ما هو إلا استئناف على نحو ما لحياة اليقظة، وإذا تأملنا أحلامنا وجدنا استمراراً من نوع ما لما يجرى فى حياتنا التى تشغل تفكيرنا. وهكذا فإن الأحلام ما هى إلا استمرار لسردية حياة اليقظة. واستطاع السارد فى رواية «صمت الرمل» عبر المادة الحلمية التى وردت حوالى ثلاث مرات فى النص السردى أن يقدم لنا الرؤية الروائية مرة ثانية ولكن من وعى الكاتب أو من خلال اللاوعى، فإذا كان الحلم الحقيقى يمثل اللاوعى، فالحلم العقلى أو المونتاج العقلى

يمثل وعى الكاتب، فهو يقظ وفى أسمى درجات وعيه ونشاطه الذهني. ولا يمكننا فصل الحلم عن المنتاج فكلاهما يكتمل فما جاءنا فى الوعى يعمقه الحلم أو العكس بشكل أفقى فى الوعى يأتى فى الحلم بشكل رأسى وهكذا.
ومثال ذلك:

- الحلم :

نجد فى بداية الرواية تساؤل عمرو الشرنوبى: لماذا حدث كل هذا؟ ولأنه يحيلنا إلى مجهول ولا يتضح لنا ما حدث إلا مع السطور الأخيرة من فشل وهزيمة واستسلام ورضوخ يأتى لنا الحلم الأول استشرافياً، حيث يحمل ما سوف يحدث عبر هذا الحلم/ اللاوعى يقول فيه: (ص ١١) «أخذته سنة من النوم، رأى فى إغفائه حتماً، غيمة ودخاناً وضباباً يحيط به، كلما انتقل من مكان إلى آخر وجدها فوقه، تتبعه أينما رحل، يراها فى حالة صراع وجلبة وصلصلة كأن مادتها الحديد والاحتكاك، كأنها الجنازير تلتف حول معصمه وساقيه ورقبته وعقله، كلما ذهب إلى مكان وجدها تحوطه مبتعدة عنه أحياناً، تتعقبه أحياناً كثيرة، يحاول التوارى والهروب دون جدوى، وجدها متربصة، أصبح رجلاً مسناً متزوجاً وله أولاد، أبيض فوداه، وخط المشيب شعره، أصبح شيخاً لمزالت تتعقبه، عاش حيناً من الدهر زاد كثيراً عما توقعه لنفسه فى محاولة الفكاك، لاحظ أن التعب لم ينل منه، وكلما رآها زاده هذا قوة وتجداً».

هكذا نجد الحلم يدور فى حركة دائرية عبر الأفعال المضارعة التى تنصدر كل جملة من جمل هذا الحلم تماماً كدائرة الطوق الذى يلتف حول معصميه، وساقيه، ورقبته، وعقله. ففى المادة الحلمية ذاتها نرى الدائرة المحكمة عبر المادة اللغوية أو الأشكال الكابوسية/ جنازير تلتف، لكن يبقى الأمل، ففى نهاية الحلم على نحو ما رأينا أنها لم تنل منه بل زادته هذه القيمة قوة وتجداً.

ثم يأتى لنا الحلم الثانى الذى ينقل لنا الراوى فيه ما وصلت إليه هذه المدينة التى يعيش فيها من تخلف وجمود ولم يكن ازدهارها سوى ازدهار شكلى أجوف أيضاً يأتى لنا حلماً استشرافياً يعمق على المستوى الواقعى بعد ذلك، وربما ينصهر الحلم

الواقع فى السطور التالية مباشرة للمادة الحلمية، ففى الحلم نجد قوله:

أخذ سنة من النوم، فلم ير فى أحلامه إلا طوفانات إثر أخري، كتباً منحدره تجرفها السيول، رأى المغول ونهر دجلة مليئاً بالكتب وهارون الرشيد والمأمون ينقذان ما تبقي، أخذ على عاتقه مساعدتهما يعمل بهمة وإخلاص شديدين، العرق يتصبب منه أحس أن طاقته وهنت ونفدت فاستيقظ راضياً عما قام به» (٤٢).

فإذا كان الحلم يفرض علينا أو يرجعنا إلى واقعة هجوم المغول على بغداد وغيرها من العواصم العربية والإسلامية وإحراقهم لأهم المكتبات العربية وأعظمها - فعلى المستوى الواقعى نجد زيارة السارد/ عمرو الشرنوبى لأحد مستشفيات فى هذه المدينة ويجد كتباً كثيرة ومكتبة ضخمة لكنها على الرغم من هذه الضخامة والجمال لا تزيد الإنسان إلا عمقاً فى غريته وعزلته فكلها كتب تتحدث عن الموت وتمجد الشيطان والقيبر وعذابه.. إلخ.

أيضاً ينصهر المستوى الواقعى / الواعى/ مع المستوى الحلمى اللاوعى فى الحلم الثالث (ص٧٦،٧٧).

فعمر الشرنوبى يتقابل فى الواقع مع سناء ويحدث بينهما ما يحدث من تعبير عن الحب والمشاعر الفياضة إلا أنه يراها/ واعياً، حزينة تتألم فيقول: «ثمة انقباضة قلب، أسى وحزن وشجن، قلق يجتاح هذه الإنسانية البالغة الرقة، بدا أنها ترتعش.. إلخ». يأتى الحلم ليعمق هذا الحزن ويفسره، (٧٧): جاءت فى الحلم صامته وحزينة، استيقظ ملفوفاً بطبقة رملية كثيفة وناعمة، لها سمك وحجم، ترتفع فى أماكن عن أخرى تنز الرياح فى الخارج، ألواح الزجاج تصطك مع حلوق الشبابيك، تسرى القشعريرة فى جسده، سحبات الجير المترب تحجب أشعة الشمس، تجعل السماء قريبة، تتساقط الأمطار جيرية ناعمة، حاول أن ينادى عن غائلة الريح والمد».

ثم يعود بنا إلى المستوى الواقعى ليؤكد ما حدث فى الحلم، ويصبح حينئذ الحلم استشرافاً لما سيحدث فى الصباح: يذهب عمرو إلى سناء كى يذهب ليشترى لوازم الزواج يجدها قد تم ترحيلها إلى مدينة جارثيا.. وكانت الخطوة الأولى لترحيلها كلية إلى القاهرة..

عصافير وزهور

شعر: سارة كيرشى

ترجمة: عبد الوهاب الشيخ

ولدت الشاعرة الألمانية الكبيرة سارة كيرشى عام ١٩٣٥، وتعد أبرز شاعرات جيلها. هاجرت إلى برلين الغربية عام ١٩٧٧ احتجاجاً على سحب الجنسية من مؤلف الأغاني فولف بيرمان. وهى شاعرة غزيرة الإنتاج تتناول فى قصائدها الحب والطبيعة من زاوية مختلفة، حيث تركز على التوازن بين ما هو إنسانى وما هو سام، بين الثقة المفرطة والكتابة، بين التكنولوجيا والطبيعة. من أحدث مجموعاتها الشعرية:

«أنا كروز» ١٩٩٥

و«بلا قران» ١٩٩٦.

شموس

الآن حيث حل الصيف
للتو، ليست لدى أية
شموس. ولكن في الشتاء كان لدي
منها أكثر مما أردت.
حتى أنه ذات مرة كانت هناك سبع شمس
في السماء، شكلت
الجوزاء لأجلى.

كل شيء عصفير وزهور

في ضوء القمر أسمع صوت
تعثر وسقوط
لقد ترك
أحدهم النجار يأخذ
المقاسات. أه

العتمة تدوم
وتدوم. إذا شهدت
الصيف ساحيا
راقصة.

موج ماء

كائن ليلى يلوح مبكراً على الطريق
تمرق العرسة في فرائها الملكي
منزلة على حذاء تزلج دقيق

تطير خلف البومة في
غابة المستنقع. تلك التي سماؤها خضراء

موسيقى شتوية

ثعلباً أحمر كنت
ذات مرة، بوثة عالية
أحصل على ما أريد.

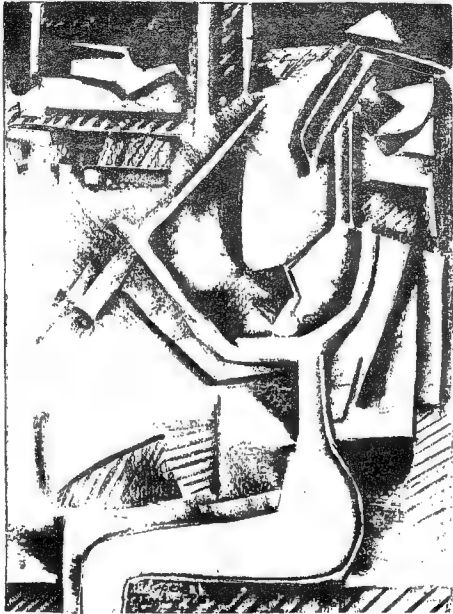
رمادية «أنا الآن أطار» رمادية
نجحت في الوصول إلى جرينلاند
في قلبي

فوق الساحل يلتمع حجر
مدون عليه: لا أحد يعود
هذا الحجر يختصر حياتي

أركان الأرض الأربعة
يغمرها الأسى. الحب
مثل قرقعة العمود الفقري.

سناج

السياح في النهاية
قد ماتوا. يطيب لى الذهاب



عبر المستنقعات . سرب أوز
يمتد طويلا . تلج متطائر
فى باب تلاجة مفتوح
علب بنزين وويسكي
ريح «صافرة» ثرثرة.

وجه الغزالة، ماس جدائلها..

(إلى فارس عودة)

عبد الناصر صالح

ولد معجزة..
عاد من نومه تحت ظل الصفيح
وأودع أحلامه غيمة،
وعصافير تعبر صوب المخيم
رتب أشياءه في الحقيقية:
أقلامه
صورة الأهل،
رائحة القمح
وأجبه المدرسى،
بشاشة وجه المعلم أو عنفه حين يغضب
رهبته حين يفشل في حل أسئلة الامتحان،

وفرحته حين يمضي إلي الجائزة.



ولد معجزة..

يفتح الآن نافذة الشمس

حتى تضئ ذؤابتها أيقة الصدر،

يبعث أغنية للغزاة

وهي تجوب الزقاق علي هدي أنفاسه

(يتذكر:

وجه الغزاة مفتتح لليراعات

حين يجف الكلام،

يسيل الهواء دماً صافياً)

يتها للصحو..

أى الدروب سيسلكها دمه؟

أى قنبلة ستفجر رأس الفتى

وتميط اللثام عن الجرح

(والجرح أوسع من دورة الأرض

والقلب أكبر من لهفة الغائبين؟)

يتها للصحو..

قال الفتى وهو ينفذ أعباءه:

ليس يأخذني النوم من يقظة السيف،

لا وقت للنوم،

لا وقت للانتظار قليلاً لكي تعبر الحافلات،

عقارب ساعته سوف يدركها الوقت

والأصدقاء - يجيئون

يتجهون إلي أول العمر:

راياتهم
والنشيد المؤجل،
والشجر النبع والقدس والعرس
والطفل يصعد أدراجه الجاهزة.



إنه الولد المتماثل في طلعة النجم،
والوطن - الحلم ديدنه
عائد من فصول الشقاوة،
ما أقت الحرب أثقالها لينام.
وما زال سرب الحمام
حزيناً علي شرفات النوافذ
يحرس قلب المدينة،
يؤنس وحشتها

وهي تعبر أشرعة فوق نقع العواصف
أي متاريس يعبرها الطفل،
أي ميادين سوف يعانقه رمئها؟
أي طلح سيلمس أهدابه؟
في أي زاوية سيعد الكمين؟
ترأى له ظله في الحدائق
صوت غزالتة،
وجهها المتألق،
ماس جدائلها

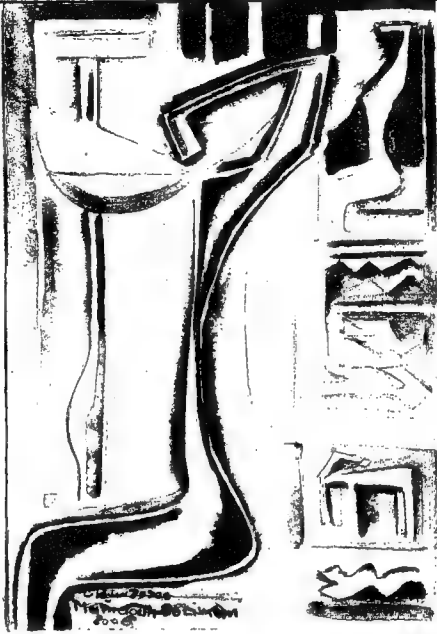
شكل أصحابه يقطفون الحجارة عن شجر البرق
- لم تكشف الريح أسرارها بعد
فليتكسر خوفه بالغناء المضرج بالشوق

ولينطلق صوته بالصهيل الذي يتوجد)
أيلول شهر المخاض
وفاتحة للبهاء الطليق ومثذنة الضائعين،
فأي صلاة يؤدي الفتى
قبل أن تبدأ الأرض زلزالها؟
أى نشيد سيتلو علي تلة
في حطام البيوت؟
وأى الرسائل سوف يحرر؟
قالت له أمه:

- هل رأيت علي السفح زيتوننا؟
ذات يوم سيكبر
ذات نهار ستجري القصائد في النهر.
- والسماء البعيدة هل يعمر اليوم أبوابها؟
- سوف يعمرها العندليب
وتنبت أزهارنا الحجرية
أكثر من مطر قد يجئ.



ولد الريح والظمأ - الجوع
والبرد والحر،
والكر والفر
والكبرياء.
ها هو الآن مستغرق في البهائم.
ها هو الآن ينتظر الأصدقاء.
يجيئون أسرع من غمضة العين،
أعلامهم



والنشيد المؤجل،

نكهة أسمائهم في الخرائط

لهفتهم لاستباق الخيول إلى موقف الحافلات،

هو الآن مزدهم بالحياة

وقد فاز بالجائزة.

(طولكرم - فلسطين)

بكل وضوح

محمود خير الله

يا من تعيشون هنا
لا تصدقوا الأبيض الذى فى السماء
إنه فراء زوجة الرئيس
بعدما علقتة على شماعة الرب
وإذا صادقتم أسداً
فى حديقة قصر
كذبوا عيونكم
لأنه مجرد صديق مخلص
لسعادة الرئيس
تأكدوا دائماً من كل شىء
انظروا - مثلاً - إلى سجاجيد القصور
وهى تنبض تحت أقدام الوفود الأجنبية

إنها شعيرات بناكم العذارى،
وإذا غفا الواحد منكم
فى حديقة عامة
ورأى قتلى ومخبولين فى الشوارع
فلا بد أن يفهم
أن هؤلاء
هم الذين قطبوا فى وجه الرئيس.
حتى الماء
لا تصدقوه
رغم أنه يزحف أميالاً على بطنه
ليدخل أبدانكم
ليس إلا
دموع الملايين الذين جاعوا



أصرخوا فيه،
ولا تصدقوه
لأن شيئاً في هدم الحياة
لا يجب أن نصدق
حتى هذه الملايين الجائعة
تهرب دائماً من أمامي
لدرجة أنني لا أراهم
لا أراهم بوضوح.

لكي يتعطر أحفاد الرئيس.
وإذا رأيتم عارية - في الطريق العام -
فلا تظنوا أهلها طردوها
إنها تمرن «المعارضين»
على محبة الرئيس،
وإذا رأيتم بائع الطيب المخادع
يهدر دموع المظلومين البيضاء
هكذا بأسعار رخيصة

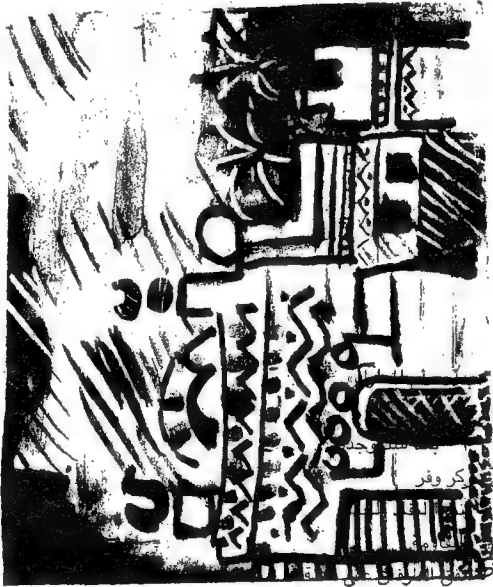
خداع

صلاح جاد

١ - بمهارة قرصان متمرس
وبخبرة امرأة مجرية
كذب عليها في عمله وزواجه
وكذبت عليه في عمرها واسمها
قبل أن يفترشا عشب الحديقة اليابس
ويسلم لجدع نخلة عريقة ظهره

٢ - أمام المرأة
أخذت تصفف شعرها
ترش عطراً نافذاً
تحت أبطيها وأذنها
في قميصها القصير الأسود
بإشارة سريعة





إثر هدنة لنقل المصابين
وإجلاء الشهداء.....
والقتلى.....

يوميات حذاء

سامح محجوب

(١)

للأسفلت الناظف صمتاً
أهدى وردة روحي
وجه الطفل الهارب من مرآة حتوفي
اسم حبيبة عمري
واسم الأطفال الجوعى تحت سماء مدينتنا
اسم رفاق الطرق المنسية
ميلاد العشب.. ميلاد الخبز..
ميلاد الحرية
للأسفلت الناظف صمتاً أهدى اسمي..

(٢)

يرفونى شوقى ورداً

ترفونى الليلة شرفة
هل يفشى الورد السر؟
هل تحكى الشرفة عنى؟
أنا نأى الغربية.. لا يعرفنى الورد الناعم
لا تنظر نحوى الشرفة
حين أمر حزينا وحدي
أنا وحدي فى هذا العالم وحدي
يذرونى الريح الجائع نغماً
مجروح الوجد

(٣)

هل تمنحين الفارس المهزوم صدرك
كى ينام
هذا أوان الحزن يسعل فى فضاءات الغمام
تعب الطريق من المسير
يا صاحبي أغلت الأحزان
أسراب الطيور
عينك مأوى الأخير
يحط فى دفنئهما القلب الكسير
هذا أوان الحزن ينشج فى تجاعيد الكلام
هل تمنحين الفارس المنقى صدرك
كى ينام

(٤)

نامى على دقات قلبى الباكيات بلا عزاء



واستدفتنى بملامحى إن ضمنى صخب الفناء
الليل يعوى فى دمي
والشارع المحزون يصرخ
فى جذائى
وأطالع الوجه الملبد بالخريف على زجاجات المساء
لقى السلام على جهامته
فيجهش بالبكاء
فأللم الدمع الكظيم من التسكع فى العراء
وأشير فى صمعت لبعض ملامحى
الكأنت تسير على الرجاء

المرايا

خالد حريب

هتفت قدام المرايا
شعار بيجرح الحنجرة والكون
ويرد لى اعتباري
تتبادل الابتسام مع بعض
نلمع شعرنا بفازلين
فى المرايا
يظهر الحيط من ورايا
فاسد.. مستبد
برواز عليه لسورة الفاتحة
كلمة «أمين» كبيرة خالص
تستخبى عينى فى الهتاف واليفط والدم
والشرار اللى بينط من عين العساكر
ترتاح ملامحي
من أثر الكريم المعطر باللمون

القميص كان فيه زرار مقطوع
من زحمة الناس في الميدان
غطيت مكانه بكوفية
وابتسمت للفرايا
غطيت قزاز المرايا باتسامة تمام
ابتسم صاحبي اللي جواها
وانكشفت
كان ميعادها فاضل عليه ساعتين
وكان آخر ديسمبر مطر
افتكرت
أنى محتاج ورنيش للجزمة
لما خلعت الكوفية
شفت الزرار موجود
وصوتى فى الحنجرة ميت

امراة واحدة

سامى الغباشى

امراة واحدة.. تسرف فى طاعتك
امراة واحدة.. تهدد رهبتك إن عدت مجروحاً
بالمعرفة
امراة واحدة.. تضمد وحدتك إن أرهقتك المقامى
امراة واحدة.. تكنس أجساد البنات من عينيك إن
تزاخمن
..... أو ارتمين اشتها على صدرك..
امراة واحدة.. تطهر قلبك إن عبثت به الأخريات
امراة واحدة.. لا تصدق غريبتك
امراة واحدة.. شساعتها وطن
امراة واحدة.. ترفض أن تسنيها وطن
امراة واحدة.. راحلة فيك وراحل فيها
..... فأيكما المغترب.

الحصان

ناصر دويدار

طلقة رصاص
يمكن تكون رحمه....
يمكن تكون الخلاص
من نظرة الشفقة
يمكن تكون نهاية مؤلمة
يجوز يكون المشهد الآخر أنى حزين
لكن أكيد
إنها..... اختصار للسنين
الجاية المرعبة
طلقة رصاص
هى أكيد رحمة

ماتبصش على وقفة الدبان
فوق عين الحصان وهو متمدد
فى بركة وحل

ماتبشش لجلده المكرمش
وديله اللى كنا بنحلف
بطوله وجماله وحلاوته
فى شعر البنات
وكبرياء رقبته اللى نايم
ودايس عليه الجراد
وما تستغريش نومته
فى عرض البلاد
دا كان زمان
فرس النبي
والصحاب
وياما ضهره شال بلاد
وحط ف بلاد
وعمر بلاد
وهاجم لصوص
وغير خرايط
وحافره ده فجر زمان
بحور الإيمان
الأمان
الحنان
وكان له زمان
عشيرة وأهل
عمومة وخلان
وكان له عيال تسد لشموس
وكان له سهيل يهد الجبال
دا كان السيد.. الحصان



ماتستغريوش
دى صورتہ
ف اول سباق للخيول
فى اول طريق الحياة
دى صورتہ
رقبته.. وفخده.. حوافره.. سنانه.. دماغه
وطوله وعرضه ونظرة عيونه البعيدة وهى بتلمع
دى صورتہ
وأخر السباق
وصل له لوحده
مفيش حد جنبه
دا كاس الوصول بيلمع لوحده فى آخر السباق

صحيح إن نومته تحزن
تكدر
تياأس
تحطم تكسر
لكن الحقيقة
بأن الرصاصة اختصار
السنين اللى جايه
السنين اللى ترعب

سنين المعيز
الحمير
الكلاب
ماهياش سنين الحصان

الجواد

محمد حسن علي

سقط الجواد وأنت تستبِق الخطي
تعدو إلى الحلم الذي
جابهت فيه الشمس والليل الخثون
سابت أفراس النهار
وحطمت قدماك أجنحة الرمال
وبعثرت أنفاسك اللفى رياح
أقسمت أن تصطفيك
سقط الجواد وأنت قديس كليم
ترسم الشرق الضياء بلا ظلال
وتعيد نجماً قد خبا في أعين العشاق
تلكح في حوائط عمرنا باباً لناأتلف الضياء
لكن حلمك سيدي ضل الطريق لمبتغاه

فالسحر ضاع من العصي
والبحر خان
قد شيّدوا من ملك قارون القصور
وأوقدوا فى الطين
ما كنت أول راحل بدأ المسير
لكنك الحلم الشقيف
ما كنت أول مبعث للقناطين
لكنك الفرس الوحيد
بالله ماذا الآن تلمح فى العيون
الحزن إكليل يطوق حول أعناق السنين
العار وشم فوق أفئدة العذارى التائهات
والياس وجه سافر فى ظلمة الليل القمى
سافرت...

ما كانت حدود الكون أرحب من سماء تصطفيك
ولا رؤى الأحلام أعذب من عذارى تشتهيك
ما كان نبضك شاهداً أن الحياة بنا على درب تسير
ما أتعبس العمر الذى يمضى بنا والنبض منكسر ذليل.

مخلوقات صغيرة

سعيد عبد الموجود

يسير كما يسير دائماً، ضوء المحطة التي لم يبعد عنها كثيراً يكشف الظلام، يستطيع أن يرى الحصى والعشب النابت بين الأحجار والقضبان بوضوح وأيضاً هياكل المبانيات تحت الإنشاء التي يتجه إليها، رآها أثناء النهار وهو يسير هناك، قرر أن يبيت فيها ليلته عندما يحين الليل، لم يتم بين جدران من زمن، كره الجدران منذ تلك الليلة ولكنه اليوم حن للدفء نسائم الشتاء الباردة تفتح وجهه، لا يعرف لماذا يتذكر أمه الليلة، يتذكر ملامحها، لا يتذكر الأشياء الأخرى جيداً، آخر ما يذكره عندما كان معها ملامح الرجل، الرجل الذي لم يكن يحدثه والأريكة التي كان ينام عليها في الردهة الضيقة عندما تنتهي جلستهم أمام التليفزيون في الليل ويدلف الرجل إلى الحجرة الوحيدة ثم تتبعه أمه، يذكر أن الرجل لم يضربه، لا يذكر أنه حدث ذات مرة لم يفهم لماذا وجد أمه تحمل صرة ملابس ذات يوم وتسير به في الطريق والبلبل يملأ عينيهما، بعدها لم يعد للمنزل ولم يعد يرى الرجل الذي لم يكن يحدثه، بدأ يرى كثيراً من الوجوه في مقهى الرجل الغريب الذي تركته أمه لديه عندما سارت به في شوارع

المدينة وبدأ يآلف الضوضاء التي كانت تؤلم رأسه الصغير والعمل طول النهار، لم يعد يرى أمه، جاءت إليه مرة، نادته من بعيد وجلست به على الرصيف، قبلته كثيراً هذه المرة وقبل أن تمشى تركت فى حجره بعض الحلوي وثوباً جديداً، لم يرها بعد ذلك، فهم عندما رأى المعلم ذات يوم ينظر إليه ويهمس لمحدثه:

- وجدت طريقاً للسفر... ستعمل فى بيت هناك.

بعدها وجد نفسه يترك المقهى ويسير، لا يعرف إلى أين، كان لا يعرف من «المدينة» سوى البيت المنخفض الذى كان يسكنه مع أمه والرجل عند المقابر وعدة أمتار من الشارع حيث كان يلعب، سار بلا هدف إلى حيث تقوده قدماه ومن يومها وهو يسير، أصبح السير سلاحه كلما كره مكاناً أو وجوهاً، لم يعد له مكان واحد أصبحت المدينة كلها مكانه بعد أن بدأ يتعرف عليها، أصبح لا يحمل هم المأوى والارتزاق، عرف أماكن كثيرة، كل ليلة ينام فى مكان. تحت «نصبه» فى سوق الخضار، أو خلف دورة مياه عامة أو أمام باب جامع أو على سلم عمارة من العمارات الشعبية، كان ينام فى مكان واحد أول الأمر. الحجرة المفتوحة بمحطة السكة الحديد... الاستراحة التى تخلو فى الليل، لم يعد ينام هناك بعد تلك الليلة عندما استيقظ من نومه ليحس بيدين تجذباناه بقسوة وتجردانه، لم يستطع الصراخ عندما أحس فى الظلام بالأم وخجل شديدين، بعدها كره الجدران، أصبح لا ينام بين الجدران، أدرك أن هناك عمالاً مخلوقة له وعرف أماكنها... عند مدخل المحطة يمسح الأحذية أو فى موقف سيارات الأجرة يغسل السيارات أو فى «سوق الخضار» يحمل الأقفاص، عندما يترك عمالاً لا يجد مشقة فى أن يجد عمالاً آخر، اكتشف أنه كبير ويعرف المدينة الصغيرة أكثر ولكنه اكتشف أيضاً أن المدينة لا تعرفه حتى الذين يعمل معهم لا يعرفون سوى اسمه الذى ينادونه به، ينادونه باسماء كثيرة، فى كل مرة يعمل فى مكان ينادونه باسم مختلف مرة عبد الله. ومرة عبده وأخرى وحيد أو غريب أو منبسي، لا يعترض على اسم أو يصححه، لم يعد يذكر اسماً ثابتاً، هو أيهم ينادونه به، لم يصادقه أحد، اعتاد أن يكون صديقاً لنفسه لا يذكر أن أحداً من الذين يعمل عندهم أم معهم سأل عنه عندما كان يغيب أو يترك العمل... مازال يسير، ابتعد



ضوء المحطة لم يعد يصل أضواء المنازل المتناثرة في الحقول لا تضيء المكان،
النسمات تزداد برودة، الظلمة تحتوى المدى إلا من نقطة ضوء هناك في آخر مرمى
البصر.. الإشارة المعلقة وسط الظلام، يقترّب من الخلاء الذى يحتوى المساكن تحت
الإثشاء، يستعد للانحدار ليتجه إلى هناك، يسمع نباحاً ضعيفاً كأنه الأنين، يستدير،
يمد بصره، يرى بقعة بيضاء مكومة وسط القضبان، يؤجل انحداره، يخطو إلى هناك،
ينحنى على المخلوق الصغير الذى ينتفض، أنات الصغير تشرخ قلبه، يجثو على
ركبتيه، يحمله وينهض، يضمه إلى صدره ويمسح رأسه، يحتضنه أكثر، يسكن
الصغير بين يديه وهو ينحدر به متجهاً إلى حيث سيبيطان ليلتهما.

الخليفة

أحمد محمد عبده

فى القديم القديم. ورث آدم الأرض. فتريع على عرشها. نظر فى الأرجاء . لم يجد رعية ولا حراساً!!.

وكانت تلك هى المرة الأولى. التى يتوق فيها «ملك» إلى إلقاء الأوامر والنواهى!

ولما جاءت حواء. وشبع آدم من كفها . حدث . وللمرة الأولى. أن رأى نفسه . ورأت هى نفسها..!!

فطفقا يخصفان عليهما من أوراق الجنة.

فحدث.. وللمرة الأولى. أن اشتاق «ملك» إلى أن ينبى عنه ملكاً آخر. وذلك فى أوقات المرض والسفر والطعام (وقضاء الحاجة ولقاء الزوجة)؟؟ فالعرش . حسب التعاليم.. لا ينبغى أن يخلو - ولو لساعة واحدة - من متريع عليه.

وقبل أن ينتهى آدم .. من أولى مرات لقائه بحواء.

وكانت تلك هى المرة الأولى. التى كان فيها العرش بدون متريع عليه.

استغفر آدم ربه. فتاب عليه

ثم توجه واعتلى العرش
أنجبت حواء ولداً.
أراد آدم أن يقضى بعض أموره. فأجلس ولده على العرش.
وحينما انتهى.. راح يطلب العرش. لكن المتربع عليه ظل متربعاً.
تنحنح آدم. لكن «المتربع» لم يعره اهتماماً.
نهره آدم. ثم زغده. ولا مجيب.
ألح عليه فى النزول عن العرش. فهو الأب. وهو الأقدم وجوداً والأوسع عقلاً والأكثر
حنكة. ودراية.
لكن المتربع على العرش لم يهتم.
لعن آدم ذلك الماء الذى كان قد أودعه فى رحم حواء بعد مجئ هذا العاق.
وقال:
إنه لن يأتى بأفضل منه...!!
راح يضرب فى الأرض طولاً وعرضاً.
ظل المتربع على العرش متربعاً عليه. إلى أن تجسد الماء الذى فى بطن حواء.
هبط المتجسد من بطنها. ثم بكى.. ثم رضع.. ثم دب على الأرض.
ثم ابتسم.. ثم ضحك.. ثم قهقه.
طلب منه الجالس على العرش أن يجلس فى مكانه ساعة. يقضى فيها أمراً.
وكان أن اشترط عليه ألا يتربع. لكنه تربع...!!
ولما قضى أمره. وقف أمامه.. وطلب منه العرش لكن الجالس عليه لم يلتفت إليه.
نهره ثم زغده. ثم جذبه إلى الأرض.. ثم انقض عليه. فهو الأكبر والأقدم والأوسع
خبرة والأكثر حنكة.
وكان أن حدث - وللمرة الأولى - أن يرتمى جسد على الأرض ثم يرتضى.. ثم لا
يتحرك.. ثم لا يقوم واقفاً مرة أخرى.
فر القاتل.. هائماً على وجهه فى الأرض.
تقابل مع آدم.. الأب.

كاد الولد أن يفر من أبيه. لولا أن جذبته الأب إليه فى إشفاق واحتواء. وقال له:
سوف يلعنك كل الذين سقطوا على الأرض إلى يوم الدين.

ثم قال:

ستهيم على وجهك أربعين عاما. جزاء ما عقت أبك. وأربعين أخرى جزاء ما قتلت
أخاك.

تمكن الولد من الإفلات من بين يدي أبيه. وفر هاربا.
نظر إليه الأب. ثم بكى.

كان آدم قد أقسم ألا يعود إلى هذا العرش أبدا.

سيبحث عن عرش آخر.. فكل الأرض مملكته. لكنه تذكر حواء..

تذكر أن أحشاءها - الآن - فارغة - وأن العرش خال من متربع عليه.
فواصل المسير.

دخل تخوم مملكته . وكان ذلك عند الفجر.

فى هذا اليوم نام.

وفى اليوم الثانى .. قام..

وقعت عيناه على قبر ولده

بكي..

ثم حفر قبراً بجواره

ثم اختلى بحواء..

دعا ربه بذرية صالحة

ثم صعد ليجلس على العرش!!

عن ملفات الأدب فى الأقاليم

بقلم / سمير الأمير

من المفترض أن مجلة فكرية / أدبية تصدر عن أحد أحزاب اليسار المصرى ويشرف على تحريرها ناقدة مرموقة بقيمة وحجم «فريدة النقاش» وشاعر كبير بجدية وعمق «حلمى سالم» من المفترض أن تتميز وتناهى بنفسها عن «معجنة» مجلات وزارة الثقافة التى تحولت إلى «سبوية» لحرريها وشللهم من منتفعى الأدب ومحترفى سرقة الدعم الثقافى الذى لا يصل أبداً إلى مستحقيه من المهوبين الحقيقيين فى القاهرة وعموم مصر المحروسة.. لذا تحتم على «أدب ونقد» أن تتعامل مع النصوص الإبداعية والمقالات بموضوعية بغض النظر عن اسم الكاتب أو محل إقامته فنشر الأعمال التى تأتى من أبعد قرية فى الريف المصرى متجاوزة مع تلك الأعمال التى يكتبها أشهر كتاب القاهرة وذلك لترسيخ قيم الثقافة الموضوعية والجادة وللانتصار للمواهب الأصلية أينما وجدت ومن هذا المنطلق ولتقتى أنكم قادرون على القيام بهذه المهمة وقد فعلتم ذلك من قبل وكان لكم فضل فى الوقوف إلى جانب أدباء أصبحوا الآن متحققين فى الواقع الأدبى المصرى بل والعربى ومنهم على سبيل المثال القاص محمد المخزنجى والروائى رضا البيهات والشاعر طاهر البرنبالى

وأسماء كثيرة لا يتسع المجال لذكرها.

من هذا المنطلق أود ان أهمس لكم ببعض الملاحظات حول سياسة النشر للآباء ضمن ملفات تكرر للجغرافيا أكثر مما تكرر لقيمة الأعمال الأدبية وكتابها وأوجز ملاحظاتي في النقاط التالية:

أولاً: - أليست القاهرة هي أيضاً إقليم مثل بقية أقاليم مصر؟ فهل ستنشرون قصائد أحمد عبد المعطى حجازى وقصص بهاء طاهر فى ملف يحمل اسم «القاهرة الكبرى والقليوبية» هل ستنشرون مقالات رجاء النقاش وصلاح عيسى ضمن ملف الدقهلية حيث ينتمى الأول «لمنية سمونود» والثانى لقرية «بشلا»؟

ثانياً: - هل يمكن اعتبار الملف الأدبى الخاص بإقليم معين ضمن المتن أم ضمن الهامش؟ فإن اعتبرتموه متناً فلماذا تضعونه بين قوسين كبيرين ألا يدل ذلك على تهريك من التقييم العام للأعمال المنشورة، الموقف الذى ربما يعبر عن الكسل أكثر مما يعبر عن الاهتمام.

ثالثاً: هل تريحون ضمائمكم المعذبة نتيجة شعوركم بالتقصير فى حق الآباء (المتعشمين فيكم) فتتخلصون من هذا الشعور بوضعهم فى سلة واحدة تسمحونها تهذباً «ملفاً»؟

رابعاً: - وهذا مطلب شخصى - أرجو ألا تنشروا أياً من قصائدى التى أرسلتها بالبريد أو مع الأصدقاء ضمن هذه الملفات الجغرافية وذلك لأن أمى تصر على أننى «دقهلاوى» بما أنها من «ميت سلسيل» ويصر أبى على أننى «شرقاوى» بما أنه من «منشأة الأمير» أما زوج خالتي فبطالب بضمى إلى محافظة دمياط حيث استضاف أمى فى شهرها الأخير وحدث أن ولدت هناك وهذا يجعل وضعى فى ملف معين أمراً بالغ التعقيد وينذر بعواقب عائلية وخيمة.



إشارات

محمد الماغوط

فى أوائل أبريل الماضى مات محمد الماغوط عن اثنين وسبعين عاما فهو من مواليد مدينة «السلمية السورية» سنة ١٩٣٤ وقد بدأ اسم محمد الماغوط يتردد فى الحياة الأدبية العربية منذ حوالى سنة ١٩٥٥ وارتفع نجمه بعد ذلك بسرعة شديدة فى الستينيات وما بعدها حتى أصبح اسم الماغوط له ضوء ساطع لا يشبهه ولا يساويه ضوء آخر فقد كان الماغوط صاحب موهبة فريدة مستقلة يصعب أن تتكرر بهذه الصورة النادرة، وقد يتصور البعض أن الماغوط هو ثمرة تعليم متميز فى العالم العربى أو فى الخارج، وقد يتصورون أن تاريخه الشخصى ملئ بسنوات من القراءة والبحث عن أسلوب خاص به ولكن الحقيقة غير ذلك فإن الماغوط لم يحصل على أى تعليم منتظم، وقد هرب من مدرسة زراعة متوسطة التحق بها لأنها كانت مدرسة داخلية تقدم له المأوى والطعام، وكان الماغوط من أكثر الفقراء فقرا فى بلاده بل فى هذه الدنيا كلها.

وقد كان هذا الفقر هو الوحش المفترس الذى أنشبت أظافره فى جسم الماغوط فى بداية حياته ولكن الماغوط قارم هذا الفقر وخرج من سجنه القاسى بموهبته الفريدة وليس بالشهادات والوظائف الغربية التى حصل على بعضها مثل تلك الوظيفة التى حصل عليها فى الستينيات، وهى وظيفة رئيس تحرير مجلة الشرطة فمحمد الماغوط كان مطارداً من أجهزة الأمن وقد دخل السجن سنة ١٩٥٥ متهما بالانتماء إلى حزب ممنوع هو «الحزب القومى السورى» الذى تم إعدام زعيمه أنطون سعادة سنة ١٩٤٩، وبعد خروج الماغوط من السجن الذى قضى فيه تسعة أشهر بدأت أجهزة الأمن تشعر أنه لا خطر منه كإنسان «غليان» يعيش فى حاله، أما خطورة أديبه فلم تكن تعنى أجهزة الأمن فى شىء فقليلا ما تخاف أجهزة الأمن من الأديب شعرا أو نثرا. ولكنها تخاف من الإنسان النشط الذى يتحرك ويحرك غيره، ولذلك نال الماغوط هذه الوظيفة التى كان آخر من يصلح لها، وهى رئاسة تحرير مجلة الشرطة، وبينما كان الماغوط يعيش كموظف مطيع وإنسان انطوائى لا يلفت الانتباه إليه، كانت كلماته تهز أرجاء العالم العربى وتتردد فى كل مكان، وتثير الغضب فى النفوس وتحرك الضمائر، وتلفت الأنظار بقوة ساحرة إلى القضية الكبرى التى عاش من أجلها الماغوط طيلة حياته وهى قضية الإنسان العربى العادى الذى يصارع الفقر وكثيرا ما يصرعه هذا الفقر ويقضى عليه.

محمد الماغوط أديب ليس معه شهادات ولم يلجأ إلى حماية حزب أو دولة، وقد عاش ومات وهو لا يعرف أى لغة أجنبية، وكان لا يتباهى بشىء ولا يعتمد على شىء غير موهبته، وقد عبرت هذه الموهبة كل «الحدود» فى قضية الفيلم المعروف بهذا الاسم، والذى كتبه الماغوط وقام ببطولته رفيق عمره الفنان دريد لحام. وقد قدم دريد أيضا للماغوط عددا من المسرحيات الرائعة من أشهرها وأبدعها «كاسكا يا وطن».

الماغوط فنان سوف يقف التاريخ أمامه طويلا وسوف يقرأه الناس جيلا بعد جيل، ولن يملوا منه أبدا كما شعروا بالملل من بعض الذين كان لهم ضجيج وضوضاء، فأصبحوا غارقين فى صمت يحيط بهم ويفرض عليهم أن تبقى صفحاتهم مطوية لا يفتحها أحد.

الماغوط فنان فريد، وأدبه من أخطر ألوان الأدب التى عرفتها الثقافة العربية فى تاريخها كله. وقد كان بيكاسو يتباهى بعبقريته ويقول: «أنا لا أبحث .. أنا أجد» ولعل هذا القول مما ينطبق أيضا على الماغوط، فقد كان صاحب موهبة غزيرة العطاء... وكان يجد ولا يبحث!



مكتبة لسان العرب

www.lisanarb.com

lisanerab.com

رابطہ بدیل

